المركز القومى للترجمة

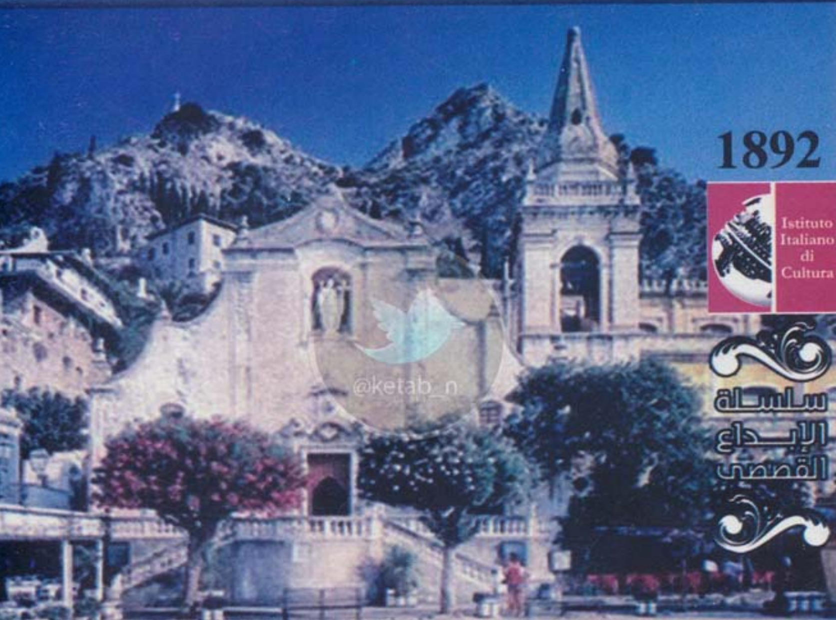
المشروع القومى للترجمة

إليو فيتوريني

أطراف حديث فى صقلية

ترجمة وتقديم: حسين محمود

مراجعة: سوزان بديع إسكند ر



1892

Istituto Italiano di Cultura

سلسلة الإبداع القصصى

أطراف حديث فى صقلية

رواية

تــأليف: إليو فيتورينى

ترجمة وتقديم: حسين محمود

مــراجعة: سوزان بديع إسكندر

2012

أطراف حديث فى صقلية

رواية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1892
- أطراف حديث فى صقلية
- إليو فيتوريني
- حسين محمود
- سوزان بديع إسكندر
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة رواية:

CONVERSAZIONE in SICILIA
Elio Vittorini

Published in Italy by RCS Libri, Milano
Questa opera e' stata pubblicata con il contributo del Ministero degli Affari Esteri Italiano.

تم نشر هذا العمل بمساهمة من وزارة الخارجية الإيطالية

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

فيتورينى، إليو.
أطراف حديث فى صقلية/ إليو فيتورينى؛
ترجمة وتقديم: حسين محمود، مراجعة: سوزان
بديع إسكندر. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ٢٠١١.
٢٦٠ص ؛ ٢٠سم. ـ (المركز القومى للترجمة)
تدمك ٢ ٩٩٣ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإيطالية.
أ ـ محمود، حسين. (مترجم ومقدم)
ب ـ إسكندر، سوزان بديع. (مراجع)
ج ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٨١/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -993 - 2
ديوى ٨٥٣

المحتــويات

تقديم المترجم

"أطراف حديث فى صقلية" هو عنوان رواية الأديب الإيطالى إليو فيتورينى، وتعد من عيون الأدب الإيطالى فى القرن العشرين، وتترجم لأول مرة إلى اللغة العربية. وقد نشرت الرواية لأول مرة على حلقات فى صحيفة "الأدب" الإيطالية بين عامى ١٩٣٨و١٩٣٩ ثم نشرت فى كتاب عام ١٩٤١ بعنوان "اسم ودموع"، قبل أن يعاد نشرها مرة أخرى فى العام نفسه بهذا العنوان: "أطراف حديث فى صقلية".

والرواية التى دشن بها فيتورينى للواقعية الجديدة يمكن قراءتها على مذهبين: الأول واقعية الحلم، التى ترتكز على ما قد يراه الراوى فى أحلامه أو فى هلوساته، وهى تقنية عرف بها واشتهر فيما بعد مؤلفون آخرون مثل أنطونيو تابوكى فى "طائر الليل الهندى". ويستطيع هذا المدخل أن يفسر عدم وجود خيط روائى يجمع المقابلات التى أجراها البطل والمحادثات المرهقة والمتكررة، والمواقف التى كانت حتى ذلك الوقت غريبة عن المشهد الروائى الإيطالى، مثل مشاهد الحقن التى تعطيها الأم لمرضاها والتى

تابعها البطل بإلحاح وإصرار منها. وهو ما يفسر كذلك فى الفصل الرابع النبرة الغريبة للحوار بين الشخصيات الذين يؤكدون ويصرون على أنهم "يعانون لأجل العالم المهان". كما يمكنه تفسير العبث واللامعقول فى نهاية الرواية عندما تعود شخصيات الرواية جميعها فى النهاية فيما يشبه البعث والقيامة بعد المحادثة التى أجراها البطل مع شقيقه الأصغر الذى مات فى الحرب.

أما المدخل الآخر لقراءة الرواية فهو الرمزية التى تعبر عن مقاومة الأديب للفاشية والتى لجأ إليها فيتورينى حتى يهرب من بطش الرقابة، وفى الوقت نفسه يعبر عن مقاصده ونواياه من خلال شخصيات وحوارات تتجاوز المعنى الظاهر. ومن هذا المدخل يمكن أن نفسر الشخصيات الثلاثة؛ السنان الذى يرمز إلى الثورى الذى يحاول استنهاض الشعب ولكن لا أحد يستجيب له لأن الشعب يتظاهر بعدم وجود ما يستدعى الثورة ويتلاهى عن العنف. وحزقيال الرجل، الذى يرمز إلى فلسفة السلوى والعزاء، وبورفيريو بائع القماش الذى يروج للماء الحى، ويرمز إلى الثقافة الكاثوليكية التى ترد العنف والإهانة بطقوس وشعائر دينية. وهؤلاء جميعا يمثلون قوى المقاومة التى لا تنجح بسبب اللامبالاة الجماعية.

وتقنية السرد التى يستخدمها فيتورينى شديدة الذاتية، لأنها تسمح بخلق جو غامض حول المشهد المروى، ولا تصرح به مباشرة، سواء مع مفتاح واقعية الحلم أو رمزية المقاومة. كما أن الخيال "الذكى" هو الأداة الفنية التى ينجح بها فيتورينى فى وضع النص أمام القارئ كقصيدة شعر متعددة المستويات فى القراءة والتفسير،

ولعل هذا هو الدرس الذى استوعبه فيتورينى من شاعرية السرد فى ألف ليلة وليلة، التى نجد فيها تقنيات الحلم ورمزية المقاومة.

وتضع هذه الرواية فيتورينى فى صف كبار الكتاب الإيطاليين مثل فيرجا وسيلونى، دون أن يشابه أياً منهما، بل ككاتب متميز، لروايته قيمة تاريخية كبرى فضلا عن قيمتها الأدبية الراقية.

ولد إليو فيتورينى فى سيراكوزا بجزيرة صقلية الإيطالية يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٠٨، وكان أبوه، كما يبدو هنا فى هذه الرواية، عاملا فى السكك الحديدية، بما ينطوى عليه ذلك من كثرة الترحال فى المدن والأرياف الحضرية والجبلية فى صقلية، وما كانت تعيشه هذه المناطق من بؤس شديد، أجاد فيتورينى وصفه فى الرواية، التى تَعد فى جانب منها سيرة ذاتية للمؤلف رغم أنه ينفى وبشدة أن تكون سيرة ذاتية. ولكن فيتورينى الصبى هرب من البيت نحو أربع مرات، وكانت الرابعة هى الأخيرة التى لم يعد بعدها للبيت أبدا. وانتهى به الحال إلى الإقامة فى فريولى بالشمال الإيطالى حيث عمل فى إحدى شركات البناء. وقد بدأ القراءة فى سن صغيرة، وكان لألف ليلة وليلة تأثير واضح عليه، حيث مثلت له نبع الخيال، الذى ميزه كاتبا "ذكى " الخيال، كما وصفه أحد النقاد. وفى فريولى بدأ نشاطه ككاتب فى سن مبكرة جدا، وكانت أعماله الأولى محاولات ساذجة لتقليد الواقعية السائدة فى ذلك الوقت، ولكننا نلحظ فى أول مجموعة قصصية صدرت له عام ١٩٣١ بعنوان "البورجوازية الصغيرة" تأثير مجموعة "سولاريا" وهى مجموعة أدبية كانت تهدف إلى إخراج إيطاليا من عزلتها وربطها بالثقافات الأوروبية وغير الأوروبية، ولذلك نقلوا إلى الإيطالية نماذج الطليعية الأوروبية مثل

مارسيل بروست وفرانز كافكا. إعجاب فيتورينى بالجو الثقافى لسولاريا دفعه للانتقال عام ١٩٣٠ إلى فلورنسا حيث عمل مصححا فى صحيفة يومية، وتعلم الإنجليزية من عامل المطبعة بهذه الصحيفة، ومن هنا بدأ اهتمامه بالرواية الأمريكية، فترجم على الفور روايات أمريكية أدى محتواها المراوغ إلى خلق علاقة ريبة وشك مع النظام، وبالفعل تم طرده من الحزب الفاشى الحاكم والذى كان قد قاطعه قبل ذلك ولم يجدد عضويته به منذ زمن. ولكن انفصال فيتورينى عن الفاشية كان له أيضا سبب آخر، يتجاوز الوعى السياسى البسيط، وهو الإحساس بالإهانة فى رد فعل ذكى على الفاشية؛ فأمام القهر الفاشى لم تكن معارضة فيتورينى سوى نوع "من الغضب التجريدى"، كما كتب فى "أطراف حديث فى صقلية". فطبقا للناقد سالينارى عمد فيتورينى إلى "تحويل الفاشية إلى تصنيف الخير والشر، وعزلها عن الزمان والمكان، لابد أن تعارضه الطبيعة الإنسانية الحقيقية والوعى بواجبات والتزامات إنسانية جديدة".

وقد توقف فيتورينى عن الكتابة مع الحرب الأهلية فى أسبانيا التى تحالف فيها موسولينى مع فرانكو، والتى أظهرت له جليا الفرق الجوهرى بين القهر والحرية. وانتقل بعد ذلك إلى ميلانو ليعمل محررا ومترجما ويحدد بشكل قاطع أيديولوجيته السياسية والثقافية مع نشوب الحرب العالمية الثانية.

وفى عام ١٩٣٩ استطاعت روايته "أطراف حديث فى صقلية" أن تفلت من الرقيب الفاشى فى أول نشر لها على حلقات، ولكنها واجهت هجوما شديدا من جانب نقاد السلطة، فقد اعتبروها ضد

الأمة وضد الأخلاق. واستمرت مواجهاته مع النظام الفاشى الذى منع نشر "مختارات أمريكية" عام ١٩٤١ ودخل السجن من يوليو ١٩٤٣حتى سبتمبر حينما خرج من السجن لينضم إلى المقاومة.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية انخرط فيتورينى بحماس مع موجة التفاؤل الليبرالى التى أعقبت التحرير والتى انتهت إلى ظهور الواقعية الجديدة وأصدر مجلة رأس تحريرها لمدة عامين هى "البوليتكنيكو" التى استمرت من ٤٥ إلى ٤٧. كان سبب توقف البوليتكنيكو هو عدم اعتراف الشيوعيين بها أو تقديرهم لها، ولكن هذا لم يمنع فيتورينى من مواصلة ريادته للواقعية الجديدة استجابة لاحتياجات المجتمع لثقافة جديدة، وأصبح فيتورينى من قادة الفكر والثقافة فضلا عن كونه رائد الواقعية الجديدة فى إيطاليا، ولابد أن مشاركته عام ١٩٤٨ فى مؤتمر جنيف حول الفن المعاصر بموضوع كان يثير فى ذلك الوقت جدلا واسعا، حول التزام الفنان، هى التى أعلنت بشكل لا يقبل اللبس عن فكره، وعن أفكاره حول الفن الملتزم، بحل إشكالية العلاقة بين القيم التاريخية والقيم الخالدة للفن عبر طريق مفهوم "عرضة الواقع للتحول والتغير" والذى يلتقطه الفنان ويوصله عن طريق رسالته.

وأفرزت الانتخابات الإيطالية عام ١٩٤٨ تحولا حاسما لصالح الاتجاهات المحافظة، مما كان يعنى عودة الثقافة إلى الانعزال مرة أخرى واحتياجها إلى مخارج أخرى تتوافق مع الواقع الاجتماعى للبلاد. ولهذا بذل فيتورينى جهدا لا يفتر فى إدارة سلسلة "جيتونى" فى دار نشر إيناودى التى كانت تستهدف اكتشاف كتاب جدد أكثر قدرة على التعبير عن المشاكل الاجتماعية التى تواجهها البلاد.

ورافق ذلك عمله بالنقد الأدبى واعتباره "أستاذ" الواقعية الجديدة ومعلمها، كما نشر تجارب أدبية جديدة. وكان له الفضل فى اكتشاف فينوليو وكالفينو اللذين نشر لهما أعمالهما الأولى فى سلسلته. وفى عام ١٩٦٦ - وبعد حوار نقدى طويل بدأ جدلا بين الأدب والصناعة فى مجلة "مينابو" - مات بسبب مرض خطير.

د. حسين محمود

الجـــزء الأول

ـ ١ ـ

فى ذلك الشتاء كنت واقعا تحت تأثير نوبات غيظ مجرد. لن أقول ما هو، لست عن هذا أحكى. ولكن ينبغى أن أقول إنها كانت تجريدية، لست بطولية، وليست حية، إنما هى على نحو ما نوبات غيظ من أجل الجنس البشرى الضائع. منذ زمن طويل وأنا على هذا الحال، وكنت محنى الهامة. كنت أرى إعلانات الصحف الرنانة وأحنى الهامة. كنت أرى الأصدقاء ساعة وساعتين وأظل معهم دون أن أنطق بكلمة، وكنت أحنى الهامة. وكانت لى صديقة أو زوجة كانت تنتظرنى، ومعها أيضا لم أكن أقول كلمة واحدة، ومعها أيضا كنت أحنى الهامة. وكانت السماء تمطر وتمضى الأيام والشهور، كان حذائى مقطوعا والمياه تتسرب لى من الحذاء، ولم يكن هناك غير هذا: مطر، ومذابح فى إعلانات الصحف، وماء فى حذائى المقطوع، وأصدقاء صم، والحياة بداخلى حلم أبكم، ولا أمل، وسكون.

وهذا هو المريع: الهدوء فى اللا أمل. الاعتقاد بضياع الجنس البشرى؛ ولا تأخذنى الحمية لأن أفعل شيئا فى مجابهة هذا الضياع، كأن أضيع معه مثلا. كنت منفعلا بنوبات غيظ مجرد، لم

تكن فى الدم، فقد كنت ساكنا، ولم تكن لدى أية رغبة فى أى شىء. لم يكن يهمنى ما إذا كانت صديقتى تنتظرنى، وما بين أن ألحق بها أو لا ألحق، أو أن أتصفح معجما، لم يكن هناك فرق. وما بين الخروج لمقابلة الأصدقاء والآخرين أو الجلوس فى البيت، لم يكن هناك فرق. كنت هادئا. كأننى لم أحظ أبدا بيوم من حياة، ولا أننى قد عرفت أبدا مغزى أن أكون سعيدا، كأننى لم يكن لدى أبداً شىء أقوله أو أؤكده أو أنفيه، لا شىء من نفسى أضعه فى معترك الحياة، لا شىء أحس به، لا شىء أعطيه، ولا أى استعداد لأن أتلقى شيئا، كأننى فى كل سنى عمرى لم أطعم خبزا ولم أحتس خمرا ولم أشرب قهوة، ولم يجمعنى أبدا فراش بفتاة، ولم أنجب أبناء، ولم أضرب أحدا باللكمات، كما لو أننى ما كنت أعتقد أن كل هذا ممكن، وأنه كانت لى طفولة فى صقلية بين أشجار التين الشوكى والكبريت، فى الجبال. ولكننى كنت أهتز من داخلى بنوبات غيظ مجردة، وكنت أفكر فى الجنس البشرى الضائع، وأحنى الهامة، وكانت السماء تمطر، ولم أكن أنطق بكلمة واحدة للأصدقاء، وكانت المياه تدخل فى حذائى.

ـ ٢ ـ

عندئذ وصلتنى رسالة من أبى.

تعرفت على الخط المكتوب على المظروف، ولم أفتحه على الفور، وإنما تريثت فى هذا التعرف، وتذكرت أننى كنت طفلا، وكانت لى بطريقة ما طفولة. فتحت الرسالة والرسالة كانت تقول:

"ولدى العزيز

أنت تعرف وجميعكم تعرفون أننى كنت دائما أبا طيبا، وكنت لأمكم زوجا طيبا، أى أننى فى الإجمال كنت رجلا طيبا، ولكن حدث لى شىء الآن، ورحلت، ولكنكم لا ينبغى أن تلومونى، فقد ظللت الرجل الطيب نفسه الذى كنته، أبا طيبا لكم جميعا، وصديقا طيبا لأمكم، وفضلا عن هذا قد أستطيع أن أصبح زوجا طيبا لتلك التى هى زوجتى الجديدة والتى رحلت معها. أبنائى، أتحدث إليكم دون إحساس بالخجل، حديث رجل لرجال، ولا أطلب الصفح منكم. أعرف أننى لا أؤذى أحدا. لا أنتم وقد رحلتم جميعا قبلى، ولا أمكم التى لن أحرمها إلا من عناء صحبتى وحسب. معى أو بدونى ليس هناك فرق، فسوف تستمر فى الغناء والصفير فى أرجاء البيت.

وعلى هذا فسوف أذهب مطمئنا غير نادم فى طريقى الجديد. لا تشغلوا بالكم بالنقود أو بغيرها. لن تحتاج أمكم لأى شىء، فسوف تتلقى معاشى بالكامل كموظف سابق بالسكك الحديدية، أما أنا فسوف أعيش على الدروس الخصوصية، وأحقق بهذا حلما قديما لطالما حرمتنى أمكم من تحقيقه. ومع ذلك فأنا أرجوكم الآن وقد أصبحت أمكم وحيدة، أن تذهبوا لزيارتها بين الحين والآخر. أنت يا سيلفسترو، كنت فى الخامسة عشرة عندما تركتنا، ومن ساعتها، وداعا، ولم تعد بعدئذ لنراك. فبدلا من أن ترسل إليها البطاقة البريدية المعتادة فى يوم الثامن من ديسمبر لتهنئتها بعيد تسميتها لماذا لا تأخذ القطار وتنزل البلد لزيارتها؟ عناقى لك ولزوجتك العزيزة وللأطفال، وتقبل محبة أبيك،

كوستانتينو".

رأيت أن الرسالة قادمة من فينتسيا وفهمت أنه كتبها لنا نحن الأبناء الخمسة المتفرقين فى أرجاء العالم بالكلمات المحددة نفسها كأنها منشور دورى. كان هذا رائعا: أعدت قراءة الرسالة وتذكرت والدى، وجهه، صوته، عينيه الزرقاوين، وتصرفاته، واستعدت لحظة صبا وأنا أصفق له بينما كان يمثل دور ماكبث فى قاعة انتظار باستراحة صغيرة للعاملين بالسكك الحديدية على الخط كله، من سان كاتالدو وحتى راكلاموتو.

تذكرته وتذكرت أننى كنت طفلا، وفكرت فى صقلية، وجبالها. ولكن الذاكرة لم تفتح بداخلى إلا لهذا فقط، التعرف عليه واستعادتى لنفسى صبيا يصفق له، هو وثوبه الأحمر فى دور ماكبث

فوق خشبة مسرح تسمى فينتسيا، وأن أصفق له من جديد. لم تنفتح الذاكرة إلا لهذا وعادت لتوصد، وأنا كنت ساكنا فى اللا أمل الذى أعيش فيه كأننى لم تكن لى خمس عشرة سنة من الطفولة، ومن صقلية، ومن أشجار جوز الهند والكبريت وماكبث، بالجبال. مرت خمس عشرة سنة أخرى، على بعد ألف كيلومتر من هناك، من صقلية ومن الطفولة، وكان عمرى بالتقريب ثلاثين عاما، كان كما لو أننى لم يكن عندى أى شىء على الإطلاق، لا الخمس عشرة الأولى ولا الخمس عشرة الثانية، كما لو أننى لم أطعم خبزا، ولم أثر بأشياء وأشياء، نكهات وأحاسيس، بمرور الوقت، كأننى لم أعش أبدا، كأننى كنت خاويا، هكذا كنت، كنت كأننى خاوٍ، وأنا أرى ضياع الجنس البشرى، وساكن فى اللا أمل.

لم تعد عندى رغبة فى النظر إلى صديقتى وجها لوجه، كنت أتصفح المعجم؛ أى كتابى الوحيد الذى أصبحت قادرا على قراءته، وبدأت أحس بداخلى بشكوى كأنها مزمار يعزف بالشكوى. كنت أذهب إلى العمل كل صباح، أمارس مهنتى كعامل طباعة وأقوم بتنضيد سطور الطباعة، كنت أعمل فى صف السطور سبع ساعات فى اليوم، فى حرارة الرصاص الثقيلة، والقناع الحاجب الذى يحمى عينى، ومزمار يعزف بداخلى ويهيج فيها فئرانا وفئرانا لم تكن على وجه التحديد ذكريات.

لم تكن إلا فئران معتمة لا شكل لها، ثلاثمائة وخمسة وستون... وثلاثمائة وخمسة ستون، فئران أعوامى المعتمة، ولكنها أعوامى فى صقلية فقط، فى الجبال، كنت أحس بها تهتاج داخلى، فئران وفئران حتى خمس عشرة مرة لثلاثمائة وخمسة وستين، والمزمار

يعزف بداخلى، وهكذا غمرنى حنين غامض لأن أستعيد طفولتى بداخلى. استفقت وأعدت قراءة رسالة أبى، ونظرت إلى التقويم، كان يوم السادس من ديسمبر، وكان على أن أكتب البطاقة البريدية لتهنئة أمى، سوف أكون حقيرا لو نسيت الآن وقد أصبحت أمى وحيدة فى بيتها.

وكتبت بطاقة التهنئة، ووضعتها فى جيبى، كان يوم سبت فى نهاية الخمسة عشر يوما وقد استلمت مرتبى. ذهبت إلى محطة السكك الحديدية لكى أضع البطاقة فى صندوق البريد ومررت أمام الباحة، كانت مليئة بالأنوار، وفى الخارج كانت السماء تمطر، وكان الماء يدخل لى من الحذاء. صعدت فى الضوء سلالم الباحة، ولم يكن هناك فرق بين أن أصعد السلالم أو أستمر تحت المطر، وهكذا صعدت فى الضوء ورأيت إعلانين: أحدهما لصحيفة، تصدح بما فيها من مذابح جديدة، والآخر سياحى: زوروا صقلية، خصم خمسين بالمائة من ديسمبر حتى يونيو، ٢٥٠ ليرة ذهاباً وعودة، الدرجة الثالثة.

وجدت نفسى للحظة أمام سكتين، سكة متجهة إلى العودة إلى المنزل، فى تجريد حشود المذابح هذه، والاستمرار فى هدوء اللا أمل، والسكة الأخرى المتجهة إلى صقلية، إلى الجبال، إلى أنين مزمارى الداخلى، فيما يمكن ألا يكون أيضا سكينة بكل هذه العتمة ولا أملا بكل هذا الصمم. لم يكن هناك فرق فى أن آخذ هذه السكة أو تلك، فالجنس البشرى كان كذلك ضائعا، وعرفت أن هناك قطاراً يسافر نحو الجنوب فى السابعة، أى بعد عشر دقائق.

كان المزمار يصفر داخلى بحدة، ولم يكن هناك فرق فى أن أسافر أو لا أسافر، فطلبت تذكرة، بمائتين وخمسين ليرة، وتبقت لى من مرتبى مائة ليرة فى جيبى. دخلت المحطة، وسط المصابيح، بين القاطرات العالية، والحمالين الذين يصيحون، وبدأت رحلة ليلية طويلة حتى إنه بالنسبة لى لم يكن هناك فرق بين أن أبقى فى البيت، على مائدتى أتصفح المعجم أو فى الفراش مع زوجتى - صديقتى.

- ٣ -

كنت على سفر، وفى فلورنسا، نحو منتصف الليل، غيرت القطار، وفى حوالى السادسة من الصباح التالى غيرت مرة أخرى فى محطة روما، ونحو منتصف النهار وصلت إلى نابولى، حيث لم تعد السماء تمطر وأرسلت إلى زوجتى حوالة تلغرافية بخمسين ليرة.

قلت لها: أعود الخميس.

ثم سافرت بالقطار حتى كالابريا، ومرة أخرى عاد المطر وعاد الليل، واستعدت ذكرى الرحلة، وأنا طفل، فى المرات العشر التى هربت فيها من البيت، ومن صقلية، وأنا فى كر وفر، إلى بلد الدخان والأنفاق، والصافرات التى لا يمكن وصفها وهى تنبعث من قطارات متوقفة، فى الليل، فى فوهة نفق فى جبل، أمام بحر، بأسماء أحلام قديمة، أمانتيا، ماراتيا، جويا تاورو. وهكذا وفجأة لم يعد الفأر فأرا فى داخلى، وإنما عبق ومذاق وسماء، وأخذ المزمار يعزف لحظة من الألحان، وكف عن الأنين. أدركنى النعاس، واستيقظت وعدت إلى النعاس والاستيقاظ، وفى النهاية أصبحت على متن المركب العابر إلى صقلية.

كان البحر أسود، شتويا، وكنت واقفا على قدمى بأعلى سطح العابرة، ذلك الطابق العلوى، وتعرفت على نفسى من جديد صبيا يغلب الريح، ويلتهم البحر نحو أحد الشاطئين بتلك الخرائب، فى الصباح المطير، مدنا كانت وبلادا، باتت أكواما عند الأقدام. كان الجو باردا، فتعرفت على نفسى صبيا، أحس بالبرد ومع ذلك أصر على البقاء فوق المنصة العالية، فى وجه الريح، فوق السفينة وإسراعها، وفوق البحر.

كما وأنه لم تكن هناك إمكانية للتجول، كانت المركب تعج بالصقليين الصغار من الدرجة الثالثة، الجوعى الودعاء فى معاناتهم البرد، دون معطف، وكفوفهم فى جيوب السراويل وياقة السترة مرفوعة. كنت قد اشتريت فى فيللا سان جوفانى شيئا آكله، خبزا وجبنا، وأخذت آكل على ظهر السفينة خبزا، وهواء قاسيا، وجبنا، باستمتاع وشهية، لأننى كنت أتعرف فى ذلك الجبن على نكهات قديمة بجبالى، بل حتى الروائح تعرفت عليها، وقطعان الماعز، ودخان عشب الأفسنتين المر. الصقليون الصغار، الذين أحنوا أكتافهم للريح وأيديهم فى جيوبهم، كانوا ينظرون لى وأنا أتناول طعامى، سمر الوجوه ولكن لطفاء، وذقونهم لم يحلقوها منذ أربعة أيام، كانوا من العمال، عمال يومية فى حدائق البرتقال، عمال سكك حديدية من فرقة الأشغال بالقبعات الرمادية المحددة بالأحمر. وبينما أتناول طعامى كنت أبتسم لهم وكانوا ينظرون إلى دون أن يبتسموا.

" ليس هناك جبن مثل جبننا" ـ قلت أنا.

لم يرد على أحد، كان الجميع ينظرون لى، النساء وافرات الأنوثة كن جالسات فوق أكوام أكياس متاعهم الكبرى، والرجال واقفون على الأقدام، صغارا وكأن الريح لسعتهم، وأيديهم فى جيوبهم. وعدت أنا أقول من جديد:

ـ ليس هناك جبن مثل جبننا.

لأننى أصبحت فجأة متحمسا لشىء بعينه، لهذا الجبن، وأنا أحس به فى فمى، بين الخبز والهواء الشديد، والمذاق الأبيض وإن كان لاذعا وقديما مع حبوب الفلفل كأنها حبوب نار تفاجئنى فى اللقمة.

ـ ليس هناك جبن مثل جبننا ـ قلت للمرة الثالثة.

عندئذ سألنى أحد أولئك الصقليين، وكان أقلهم حجماً وأكثرهم وداعة، وكذلك أكثرهم سمرة فى وجهه واحتراقا من الريح:

ـ ولكن هل حضرتك صقلى؟

ـ ولم لا؟ ـ أجبت.

رفع الرجل من كتفيه ولم يردف بشىء، كانت معه ما تشبه الطفلة، جالسة فوق كيس، عند قدميه، انحنى فوقها، وأخرج من جيبه يدا ضخمة حمراء لمسها بها وهو يداعبها وأخذ يصلح فى نفس الوقت وضع الشال حتى لا تصاب بالبرد.

من شىء فى تلك الحركة فهمت أن الطفلة ليست ابنته وإنما زوجته، وفى تلك الأثناء كانت ميسينا تقترب منا، ولم يعد هناك أطلال مكدسة على حافة البحر، وإنما بيوت وأرصفة مرفأ وعربات ترام بيضاء وصفوف من عربات قطار ضاربة إلى السواد فى

ساحات السكك الحديدية. كان الصباح صباح مطر ولكن السماء لم تكن تمطر، وكل شىء فوق الطابق العلوى بالسفينة كان مبللا، وكانت الريح تصفر مبللة وصافرات السفن كانت تدوى مبللة، كما أن صافرات قاطرات السكك الحديدية كانت وكأنها صافرات ماء تصل من الأرض، ولكن السماء لم تكن تمطر، ومن جانب المداخن الأخرى ظهر لنا برج الفنار فجأة فى وسط الشتاء البحرى، مسافرا، وبارتفاعه الشاهق أخذ يبحر نحو فيللا سان جوفانى.

- ليس هناك جبن مثل جبننا - قلت أنا.

كان الصقليون الواقفون جميعا قد التفتوا نحو سياج الطابق العلوى للسفينة يشاهدون المدينة، حتى النساء الجالسات فوق الأكياس أداروا رؤوسهن لكى يشاهدنها. ولكن لم يتحرك أحد إلى الطابق السفلى لكى يستعد للهبوط، كان لا يزال هناك وقت! كنت أتذكر جيدا أنه ما بين الفنار والميناء خمس عشرة دقيقة أو تزيد.

- ليس هناك جبن أفضل من جبننا - قلت.

ومع ذلك كنت قد قاربت من الانتهاء من الأكل، وانحنى الرجل الذى كانت بصحبته الزوجة الطفلة مرة أخرى بل إنه ركع، كان معه عند قدميه سلة، وبدأ يفعل شيئا ما حول السلة وعينا زوجته تتابعانه. كانت هذه السلة مغطاة، بقطعة من المشمع المخيط بحافتها بالإبرة، دفع يده تحت المشمع وأخرج برتقالة.

لم تكن كبيرة، ولا كثيرة الجمال، ولا قوية اللون، ولكنها كانت برتقالة، وفى صمت ودون أن ينهض عن ركبتيه، قدمها لزوجته

الطفلة. نظرت الطفلة نحوى، وأنا رأيت عينيها داخل الشال الملتف حول رأسها، ثم رأيتها تهز رأسها.

بدا الصقلى الصغير يائسا، وظل راكعا، وإحدى يديه فى جيبه، والبرتقالة فى اليد الأخرى. نهض على قدميه وهكذا ظل، والريح تخبط حافة البيريه اللينة بأنفه، والبرتقالة فى يده، يلسعه البرد فى جسمه الضعيف بلا معطف، وكان يائسا، بينما يمر البحر وتمر المدينة تحتنا، فى صباح المطر.

- ميسينا. قالت امرأة وهى تئن، كلمة قيلت بلا سبب، مجرد شكل من أشكال الشكوى، وكنت أنا أنظر إلى الصقلى الصغير ذى الزوجة الطفلة وهو يقشر البرتقالة فى يأس، ويأكلها فى يأس، وسخط وحنق، دون أية رغبة، ودون أن يمضغ، كان يبتلع وكأنه يسب ويلعن، وأصابعه مبللة بعصير البرتقالة فى البرودة، وقامته محنية قليلا أمام الريح، وحافة البيرية اللينة تخبط أنفه.

- الصقلى لا يأكل أبدا فى الصباح، - قال هو فجأة.

وأردف: - هل أنت أمريكى؟

كان يتحدث بيأس ولكن فى لطف، كما كان دائما لطيفا كان كذلك فى تقشيره اليائس للبرتقالة وفى أكله اليائس لها. الكلمات الثلاث الأخيرة قالها منفعلا، بنبرة توتر حاد، كما لو أنه كان من الضرورى، أن يعتبرنى أمريكيا حتى يجد راحة لنفسه. وإذ أدركت ذلك أجبته:

- نعم، أنا أمريكى، منذ خمسة عشرة سنة.

- ٤ -

كان المطر يهطل فوق رصيف المحطة البحرية حيث كان ينتظر القطار الصغير الذى كان من المفروض أن أركبه. وكان هناك البعض من حشود الصقليين الذين هبطوا من العابرة ، وياقة السترة مرفوعة، والأيدى فى الجيوب، قد انصرف عبر الساحة فى المطر، وبقى البعض الآخر، ومعهم نساء وأكياس وسلال، كما كانوا من قبل فوق المركب، وظلوا ساكنين، واقفين على أقدامهم تحت المظلة.

كان القطار ينتظر أن تضاف إليه العربات التى عبرت البحر على المركب، وكانت هذه مناورة تتطلب وقتا طويلا، ووجدت نفسى بالقرب من الصقلى الصغير صاحب الزوجة الطفلة التى جلست من جديد على الكيس عند قدميه.

فى هذه المرة ابتسم عندما رآنى، ومع هذا كان يائسا، ويداه فى جيبيه، فى البرد، وفى الريح، ولكنه يبتسم، بفمه، من تحت حافة القبعة القماش التى كانت تغطى نصف وجهه.

- لدى أبناء عمومة فى أمريكا، - قال - عم وأبناؤه...

- آه، هكذا - قلت أنا - وفى أى مكان؟ فى نيويورك أم فى الأرجنتين؟

ـ لا أعرف ـ أجاب هو ـ ربما فى نيويورك. أو فى الأرجنتين. فى أمريكا.

قال هذا وأضاف: ـ من أى مكان أنت؟

ـ أنا؟ ـ قلت أنا ـ لقد ولدت فى سيراكوزا.

وقال هو: ـ لا... أقصد فى أى مكان من أمريكا؟

ـ من... نيويورك ـ قلت أنا.

ظللنا صامتين لبرهة، أنا بهذه الكذبة، وأنظر إليه، وهو ينظر نحوى، بعينيه المختبئتين تحت حافة القبعة.

ثم، فى شىء من المودة، سألنى:

ـ وكيف حالك فى نيويورك؟ هل تمضى الأمور على ما يرام؟

ـ إننا لا نثرى هناك ـ أجبت أنا.

ـ وفيم يهم هذا؟ ـ قال متسائلا ـ يمكن أن تكون أحوالنا على ما يرام دون أن نثرى... بل هذا أفضل...

ـ من يدرى! ـ قلت أنا ـ هناك البطالة أيضا.

ـ وفيم تهم البطالة؟ ـ قال هو ـ ليست البطالة هى ما يسبب الضرر دائما... ليس هذا... لست عاطلا، أنا.

وأشار إلى الصقليين الصغار حولنا.

ـ ليس منهم من هو عاطل. نعمل... فى الحدائق... نعمل.

ثم توقف، أخرس صوته، استطرد: ـ هل عدت أنت بسبب البطالة؟

ـ لا ـ قلت أنا ـ عدت لعدة أيام.

ـ هو ذاك إذن، قال هو. ـ وتأكل فى الصباح... إن الصقلى لا يأكل فى الصباح أبدا.

وسأل: ـ هل يأكل كل الناس فى أمريكا صباحا؟

كان بوسعى أن أقول لا، وإننى أيضا، لا آكل فى الصباح، وإننى كنت أعرف كثيرا من الناس ربما لم تكن تأكل أكثر من مرة فى اليوم، وإن هذا هو الحال فى كل الدنيا، وما إلى ذلك، ولكننى لم أكن أستطيع أن أسىء فى كلامى إلى أمريكا، لم أكن قد ذهبت إليها، ولم تكن حقا وفعلا أمريكا نفسها، وإنما صورتها التى عنده باعتبارها مملكة السماوات على الأرض. لم أكن أستطيع، لم يكن ليصح ذلك.

ـ أعتقد هذا ـ أجبت ـ تقريبا...

ـ وفى الظهيرة؟ ـ حينئذ سأل هو. ذهل يأكلون فى الظهيرة فى أمريكا؟

ـ أعتقد هذا ـ قلت أنا. تقريبا...

ـ وفى المساء؟ ـ سأل. ـ هل يأكلون فى المساء فى أمريكا؟

ـ أعتقد هذا ـ قلت أنا ـ بشكل أو بآخر...

ـ يأكلون خبزا؟ ـ قال هو. ـ خبزا وجبنا؟ خبزا وخضارا؟ خبزا ولحما؟

كان لديه أمل وهو يحاوره، فلم أكن أستطيع أن أقول له لا.

ـ نعم قلت ـ خبز وغيره.

أما هو، ذلك الصقلى الصغير، فقد ظل صامتا بعض الوقت بالأمل، ثم نظر نحو قدميه إلى الزوجة الطفلة التى كانت تجلس

ساكنة عابسة منكمشة تماما فوق الكيس، فأصابه اليأس، وفى يأس، كما فعل من قبل على متن المركب، انحنى وفك شيئا من الخيط من السلة، وأخرج برتقالة، وفى يأس قدمها لها، وهو ما يزال منحنيا وساقاه منحنيتان، وبعد رفضها الصامت، أصابه الإحباط والبرتقالة فى يده، وشرع فى تقشيرها لنفسه وفى أكلها، وهو يزدردها كأنما يبتلع اللعنات.

ـ تؤكل على شكل السلاطة هنا عندنا ـ قلت أنا.

ـ فى أمريكا؟ ـ سأل الصقلى.

ـ لا، هنا عندنا ـ قلت أنا.

ـ هنا عندنا؟ ـ سأل الصقلى ـ السلاطة مع الزيت؟

ـ نعم، بالزيت ـ قلت أنا ـ وفص ثوم وملح...

ـ وبالخبز؟ ـ قال الصقلى.

ـ بالتأكيد ـ أجبت ـ بالخبز. كنت آكل كثيرا منذ خمسة عشر عاما مضت، عندما كنت فتى..

ـ آه، هل كنتم تأكلونها حقا؟ ـ قال الصقلى ـ كنتم على خير حال حينذاك إذن؟

بين بين ـ أجبت.

وأضفت: ـ ألا تأكلون سلاطة البرتقال أبدا؟

ـ بلى، أحيانا ـ قال الصقلى ـ ولكن الزيت لا يتوفر دائما.

ـ بالفعل ـ قلت أنا. ذ لا يكون المحصول جيدا دائما.... ويمكن أن يكلف الزيت غاليا.

ـ وليس دائما ما يتوفر الخبز، ـ قال الصقلى. ـ إذا لم يبع المرء البرتقال فإن الخبز لا يوجد ووجب عليه أن يأكل البرتقال.. هكذا أترى؟

وكان يأكل برتقالته بيأس، وأصابعه مبللة، فى البرد، بعصير البرتقال، وهو ينظر عند قدميه إلى زوجته الطفلة التى لا تريد البرتقال.

ـ ولكنها تغذى كثيرا، ـ قلت أنا. ـ هل تستطيع أن تبيعنى بعضها؟

أنهى الصقلى ابتلاعه، ونظف يديه فى سترته.

ـ حقا؟ ـ تعجب. ومال على سلته، وحفر بداخلها، من تحت الغطاء، وقدم لى أربعا، خمسا، ست برتقالات.

ـ ولكن لماذا؟ سألت. ـ هل بيع البرتقال بهذه الصعوبة؟

ـ لا يباع. لا أحد يريده، ـ قال.

فى تلك الأثناء كان القطار قد أصبح جاهزا، بعد إضافة العربات التى كانت قد عبرت البحر.

ـ فى الخارج لا يريدون شيئا منه، ـ واصل الصقلى الصغير. ـ كأنه مسموم. برتقالنا. والمالك يدفع لنا بهذه الطريقة.. يعطينا برتقالا... ونحن لا نعرف ماذا نفعل به. لا أحد يريده... نحن نذهب لكى نرى ما إذا كان أحد يريده فى ريجى، أو فى فيللا سان جوفانى، ولكنهم لا يريدونه... لا أحد يريده.

أطلق رئيس القطار نفيره فانبعث من القطار صفيره.

ـ حد يريده... نذهب به إلى كل مكان، وندفع ثمن تذاكر السفر لنا وله، ولا نأكل الخبز، ولا أحد يريده... لا أحد يريده.

تحرك القطار، قفزت إلى أحد الأبواب.

ـ وداعا، وداعا!

ـ لا أحد يريده... لا أحد يريده... كأنه مسموم... البرتقال الملعون.

ـ ٥ ـ

كنت قد ارتميت لتوى على المقعد الخشبى فى القطار وقد تحرك، عندما سمعت صوتين فى الممر، يتحدثان معا عن الواقعة.

لم يكن قد وقع شىء يمكن أن يكون واقعة حقيقية، لم يكن هناك أى حدث، ولا حتى بادرة، مجرد أن رجلا، هو ذاك الصقلى الصغير، كان قد صاح نحوى بكلماته الأخيرة تتمة لحكايته، فيما لم يكن هناك وقت، وكان القطار فى وضع الحركة. لا شىء سوى ذلك، مجرد كلمات. وها هما صوتان يتحدثان عن الواقعة.

ـ ولكن ماذا كان يريد ذلك الشخص؟

ـ يبدو أنه كان يحتج...

ـ كان على خلاف مع أحدهم.

ـ فى رأيى أنه كان على خلاف مع الجميع...

ـ وأقول أنا كذلك، كان أحد المعدمين الموتى جوعا.. .

ـ لو كنت تحت لاعتقلته.

كانا صوتين من الأصوات التى اعتادت تدخين السيجار، قويان،

وعريضان، لطيفان فى استخدام اللهجة. كانا يتحادثان بالعامية الصقلية.

أطللت برأسى على الممر ورأيتهما على النافذة، كانا شخصين ضخمى الجسم، عريضى المكبين، يضعان القبعة والمعطف، أحدهما بشوارب، والآخر بدون، صقليان من نوع الحوذى المعروف، ولكن تحسنت هيئتهما، بهما أبهة وخيلاء تنم عنها حركة القفا والظهر وإن كان ذلك فى شىء من التكلف والتعثر، الذى ربما كان فى حقيقته خجلا.

"مغنيان أوبراليان"، قلت لنفسى. وواحد منهما، الذى كان دون شوارب، كان له فى الحقيقة صوت المغنى الباريتون، صوت صادح متنوع الإيقاع.

- لم تكن لتفعل إلا واجبك - قال هو.

كان صوت الآخر مشروخا من السيجار، وهو ينبعث من خلف شاربيه، ولكنه كان لطيفا فى اللهجة.

- بالطبع - قال هو - لم أكن لأعمل إلا واجبى.

سحبت أنا رأسى داخل الديوان ولكننى ظللت فى مجال الاستماع، مع تناوب الصوتين، الباريتون مع المشروخ، كنت أربط بينهما وبين الوجهين، ذى الشوارب ودون الشوارب.

- مثل هذه الأصناف يجب دائما اعتقالهم - قال دون الشوارب.

- بالفعل - قال ذو الشوارب - ليسوا مضمونين.

- كل ميت من الجوع خطير - قال دون الشوارب.

- كيف لا؟ وهو قادر على عمل أى شىء - قال ذو الشوارب.

- قادر على السرقة - قال دون الشوارب.

- هذا طبيعى - قال ذو الشوارب.

- وأن يطعن بالسكين - قال دون الشوارب.

- دون شك - قال ذو الشوارب.

- وأن ينخرط أيضا فى الإجرام السياسى - قال دون الشوارب.

تبادلا النظر وجها لوجه، ابتسما، رأيتهما أنا من وجه أحدهما ومن ظهر الآخر، وهكذا استمرا يتحادثان، ذو الشوارب ودون الشوارب، عما يقصدانه بالإجرام السياسى. كان يبدو أنهما ربما يقصدان انعدام الاحترام والاعتبار، تكلما، وألقيا بالاتهامات، دون حرج، على الإنسانية كلها، قالا إن الإنسانية ولدت لكى تمارس الإجرام.

- أية طبقة كانت... أية طائفة... - قال ذو الشوارب.

وقال دون الشوارب: - سواء كانوا مثقفين.. أو كانوا جهلاء..

ذو الشوارب: سواء كانوا أغنياء.. أو كانوا فقراء..

دون الشوارب: ليس هناك أى فرق.

ذو الشوارب: أصحاب محلات..

دون الشوارب: محامون...

ذو الشوارب: البقال الذى أتعامل معه فى لودى..

دون الشوارب: - وفى بولونيا، أحد المحامين..

ومن جديد تبادلا النظر فى العينين ومن جديد ابتسما، ومن جديد رأيتهما أنا أحدهما من الوجه والآخر من الظهر، وسمعتهما

من بين ضوضاء سير القطار بين حدائق البرتقال والبحر يحكيان عن ذلك البقال فى لودى وذلك المحامى فى بولونيا.

قال ذو الشوارب: انظر، ليس لديهم احترام.

ـ ليس لديهم اعتبار، قال دون الشوارب.

وقال ذو الشوارب: فى لودى، الحلاق الذى أتعامل معه...

ودون الشوارب: صاحب البيت، فى بولونيا..

وتحاكيا عن ذلك الحلاق الذى فى لودى وعن صاحب البيت ذلك فى بولونيا، وقال ذو الشوارب: إنه ذات مرة اعتقل ذلك الحلاق الذى يعرفه وحبسه ثلاثة أيام، وقال دون الشوارب: إنه فعل الشىء نفسه مع الجزار الذى يتعامل معه فى بولونيا، وأنا أحسست من صوتيها أنهما راضيان، بل منفعلان من فرط الرضا، وعلى وشك أن يلقى أحدهما بنفسه معانقا الآخر بدافع من إحساس الرضا المشترك بذلك الذى يستطيعون فعله: الاعتقال والحبس.

كما تحاكيا أيضا عن أحداث أخرى صغيرة، دون أى إحساس بالذنب، وفى شكاية مستمرة، وفى النهاية فى رضا، ثم أصابتهما الحيرة وتساءلا لماذا ينظر إليهما الناس نظرة سيئة.

ـ ذلك لأننا صقليون، قال ذو الشوارب.

ـ هو هذا، لأننا صقليون ـ قال دون الشوارب.

قاما بتحليل كونهما صقليين فى لودى، وكونهما صقليين فى بولونيا، وفجأة أطلق دون الشوارب ما يشبه صرخة ألم، وقال: إن الوضع أسوأ فى بلدهما، فى صقلية نفسها.

ـ أى نعم، أسوأ جدا ـ قال ذو الشوارب.

وقال دون الشوارب: أنا فى شاكا...

وقال ذو الشوارب: وفى موسوميلى، أنا...

وقالا بأية طريقة يأتى الوضع أسوأ فى شاكا وفى موسوميلى، وقال دون الشوارب: إن أمه لا تقول ما هى حقيقة عمله، تخجل من قوله، وتقول إنه موظف فى الشهر العقارى.

ـ موظف فى الشهر العقارى! قال.

ـ من باب الاحتياط ـ قال ذو الشوارب.

ـ أعرف هذا.. الأحكام المسبقة المعروفة ـ قال دون الشوارب.

وتحدثا عن الحياة وكيف كانت مستحيلة عليهما فى "البلد".

كان القطار يجرى بقعقعته بين أشجار البرتقال والبحر، وقال دون الشوارب: ـ يا له من برتقال! ـ وقال ذو الشوارب: يا له من بحر! وتحدث الاثنان حول جمال بلدة كل منهما، فى شاكا وفى موسوميلى؛ ولكنهما من جديد قالا إنه لم يعد من الممكن الحياة فيهما.

ـ أنا لا أدرى لماذا أعود إليها ـ قال ذو الشوارب.

ـ وهل عساى أعرف أنا؟ ـ قال دون الشوارب. ـ ولدى زوجة بولونية وأبناء بولونيون.. ومع هذا...

وقال ذو الشوارب: ولكننى فور أن أحصل على التصريح فإننى لا أفوت الفرصة كل سنة...

وقال دون الشوارب: لا تفويت، وخاصة فى شهر أعياد الميلاد هذه.

وقال ذو الشوارب: خاصة فى هذا الشهر. ولكن من أجل ماذا؟

وقال دون الشوارب: حتى نمزق أحشاءنا..

وقال ذو الشوارب: لكى نسمم دماءنا...

وهنا أغلق أحد الجالسين أمامى الباب بقوة، بل أستطيع أن أقول إنه صفقه.

انطفأت الأصوات، اقتلعت فجأة، وضاعت فى ضوضاء سير القطار. وكان القطار يطير عبر بساتين البرتقال، فى فم الجبال، أمام البحر. ومن بعيد كانت تظهر وتختفى مساحات جليدية عالية، وكانت السماء صافية، وقد نظفتها الريح، دون مزيد من المطر، رغم أنها كانت لا تزال دون المشمسة بكاملها؛ وتعرفت أنا على هذا الركض، ورأيت أننا كنا فى منتصف الطريق بين ميسينا وكاتانيا. ولم أعد أسمع الصوتين بالخارج؛ تلفت حولى متلهفا إلى صقليين آخرين.

- ٦ -

- أما كنتم تشمون الرائحة الكريهة؟ - قال الرجل الذى يجلس أمامى.

كان صقلياً، كبيراً، لومبارديًا أو نورماندیا، وربما كان من نيقوسيا، كان من نوع الحوذى هو الآخر مثل صاحبى الصوتين فى الممر، ولكنه نموذج أصيل، منفتح، طويل القامة، أزرق العينين. لم يكن شابا، كان فى نحو الخمسين من عمره، وفكرت أنا فى أن أبى ربما يشبهه الآن رغم أننى أتذكر أبى شابا، رشيقا، نحيفا، وهو يمثل دور ماكبث، ويرتدى الأحمر والأسود. لابد أنه من نيقوسيا أو من أيدونه؛ كان يتكلم باللهجة التى ما تزال حتى اليوم قريبة من اللومباردية، وينطق حرف الراء كما ينطقونه فى تلك الأنحاء اللومباردية التى تحيط بوادى ديمونى: نيقوسيا أو أيدونه.

- أما شممتم الرائحة؟ - قال.

- كانت له لحية صغيرة يختلط فيها البياض والسواد مثل الملح والفلفل، والعينان زرقاوان، والجبهة أوليمبية. كان بلا سترة، فى الديوان البارد من الدرجة الثالثة، وربما كان نموذجا للحوذى

النمطى لهذا السبب فقط، وليس لسبب آخر، وكان أنفه مجعدا فوق الشعر الخفيف لشواربه ولحيته، ولكنه كان كثيف الشعر مثلما يجب أن يكون عليه رجل قديم، وكان دون سترة، مشمرا عن ساعديه أكمام قميص من مربعات داكنة، وصديرية ضخمة، لونها بنى، لها ستة جيوب صغيرة.

ـ الرائحة الكريهة؟ أية رائحة؟ ـ سألت أنا.

ـ كيف؟ ألم تكن تشمها؟ ـ قال هو.

ـ لا أعرف ـ أجبت ـ لا أعرف عن أية رائحة تتحدثون؟

ثم التفت نحو الآخرين فى الديوان.

كان الآخرون ثلاثة.

أحدهم شاب، على رأسه قبعة من الجوخ الخفيف، وملفوف فى شملة، أصفر الوجه، ضامر الجسم، صغير الحجم؛ كان يجلس فى الركن الواقع على خط مائل بالنسبة لى، إلى جوار النافذة.

والثانى، شاب هو أيضا، يتدفق الدم فى عروقه، قوى، شعره مجعد وأسود، عنقه أسمر، وهو من عامة المدينة، ومن المؤكد أنه كان من كتانيا وكان يجلس عند الطرف الآخر من مقعدى، أمام الشاب المريض.

وكان الثالث عجوزًا قصيرًا أمرد داكن اللون، سميك الجلد، بقشور مكعبة، مثل ما للسلحفاة، وكان قصيرا بدرجة لا تصدق، جاف العود، مثل ورقة شجر جفت. كان قد صعد فى محطة روكالوميرا، وكان يجلس، إذا صح أن نقول إنه كان يجلس، على حافة المقعد، ما بين اللومباردى الضخم والشاب المريض، وخلف

ظهره المسند الخشبى، والذى كان يمكنه أن يرفعه ولكنه لم يرفعه. وله بالخصوص توجه اللومباردى الضخم بالكلام وهو يلتفت نحو الآخرين:

- لا يفهم عن أى رائحة كريهة أتكلم! - قال اللومباردى الكبير.

جاء صوت كأنه نفخ، بادئة صافرة، صوت ميت، لا كيان له: إه! لقد كان العجوز القصير يضحك. ولكنه لم يكن يضحك حينئذ. كان يضحك بعينيه، منذ اللحظة الأولى التى صعد فيها إلى القطار؛ وبعينيه الحادتين، الحيتين، كان يضحك بثبات، وهو ينظر لنفسه، ولى، وللمقعد، والشاب الكاتانى، ظل يضحك: سعيدا.

- غير معقول! لا يفهم عن أية رائحة كريهة أتكلم، - قال اللومباردى الكبير.

كان الجميع ينظرون إلىَّ، غارقين فى الضحك، والمريض يضحك ضحكة باهتة صامتة كما لمريض.

- آه! - قلت ضاحكا أنا أيضا - لا أفهم حقيقة... لا أشم أية رائحة كريهة...

عندئذ تدخل الكاتانى.

انثنى، والدم يطفح منه، برأسه الكبيرة مجعدة الشعر، وبفخذيه القويين وذراعيه، وبحذائه الغليظ، وقال:

- الرجل يتحدث عن الرائحة الكريهة التى تأتى من الطرقة.

- هل كانت تأتى من الطرقة رائحة كريهة؟ - قلت أنا.

- وكيف ذلك؟ لقد كانت رائحة لا تطاق - صاح اللومباردى الكبير. ألم تكن تشمها؟

وقال الكاتانى: ـ الرجل يتكلم عن رائحة ذلكما الرجلين الكريهة...

ـ أى رجلين؟ ـ قلت أنا ـ ذلكما الرجلان اللذان كانا يقفان فى النافذة؟ هل كانت تصدر عنهما رائحة كريهة؟ أية رائحة كريهة؟

سمعت الصوت الميت مرة أخرى، معدوم الكيان، صوت العجوز الضئيل ورأيت أن فمه كان مثل فتحة الحصالة. رأيت المريض أيضا، دون تعبيرات، وهو فى ضحكته الصامتة، داخل شملته؛ ورأيت اللومباردى الكبير يكاد يستشيط غضبا ولكن البهجة تطل من عينيه اللتين كانتا تشبهان عينى أبى الزرقاوين.

عندئذ فهمت ماذا عساها تكون الرائحة الكريهة وضحكت.

ـ آه، الرائحة الكريهة! ـ قلت ـ الرائحة الكريهة!

انشرح الجميع وأحسوا بالرضا وعادت إليهم الطمأنينة، ولكنّ ذلكما الاثنان اللذان كانا فى الممر أخذا طريقهما إلى حيث كانا طفلين، إلى بلدهما.

ـ غريب ـ قلت ـ ليس هناك مكان فى العالم يكره وجودهم أكثر من صقلية... ومع هذا فمن يعملون فى هذه المهنة فى إيطاليا هم جميعا من الصقليين.

ـ هذا حقيقى! ـ قلت. منذ خمسة عشر عاما وأنا أطوف بإيطاليا... عشت فى فلورنسا، وعشت فى بولونيا، وفى تورينو، وأعيش الآن فى ميلانو، وفى كل مكان وجدت صقليا يعمل فى هذه المهنة...

ـ فعلا، هذا هو ما يقوله أيضا ابن عمى الذى يسافر كثيرا ـ علق الكاتانى.

وقال اللومباردى الكبير:

- حسنا، الأمر مفهوم.. فنحن شعب حزين.

- حزين؟ - قلت وأنا أنظر إلى العجوز القصير ذى الوجه الصغير الضاحك والعينين الصغيرتين المليئتين بالضحك.

- حزين جداً - قال اللومباردى الكبير. - بل كئيب... إننا مستعدون جميعا ودائما لأن نرى الأبيض أسود...

كنت أنظر إلى الوجه العجوز الصغير، ولم أكن أقول شيئا، واستطرد اللومباردى الكبير قائلا:

- دائما ما نتمنى شيئا مختلفا، شيئا أفضل، ودائما ما نيأس من إمكانية الحصول عليه.. يائسون دائما. محبطون دائما... ودائما ما تغرينا فكرة الانتحار.

- نعم، هذا حقيقى - قال الكاتانى بجدية.

وأخذ يتفحص طرف الحذاء الضخم. وأنا، دون أن أرفع عينى عن العجوز، قلت: - ربما كان صحيحا... ولكن ما دخل هذا بممارسة هذه المهنة؟

وقال اللومباردى الكبير: - أعتقد أن هناك دخلاً لبعض الأسباب... أعتقد أن له دخلاً. لا أعرف كيف أشرح هذا، ولكننى أعتقد أن له دخلاً. ماذا يفعل المرء عندما يتخلى عن نفسه؟ عندما يحتقر نفسه لأنه ضائع؟ يقوم بعمل الأشياء الأكثر كرها له... أعتقد أن هذا هو السبب... أعتقد أنه أصبح مفهوما لماذا يكادون أن يكونوا جميعاً من الصقليين.

ـ ٧ ـ

ثم حكى اللومباردى الكبير عن نفسه، كان آتيا من ميسينا حيث ذهب إلى طبيب أخصائى بسبب مرض خاص فى الكلى، وكان عائدا إلى بيته، فى ليونفورتى بلدته، فى وادى ديمونى، ما بين إينا ونيقوسيا، وكان من ملاك الأطيان الزراعية ولديه ثلاث بنات جميلات، هكذا قال: ثلاث بنات جميلات، ولديه حصان يذهب به إلى أرضه، ولهذا كان يحسب نفسه ملكا، لأن الحصان كان عاليا وشامخا، كان يتصور نفسه ملكا، ولكنه لم يكن يعتقد أن كل شىء ينتهى عند هذا الحد، أن يتصور نفسه ملكا عندما يركب الحصان، بل كان يود أن يكتسب معنى آخر، هكذا قال: أن يكتسب معنى آخر، وأن يحس بأنه غير ذلك، أن يشعر بشىء جديد فى النفس، كان يود لو يعطى كل ما يملك، والحصان أيضا، والأطيان، لقاء أن يحس بنفسه فى سلام مع الناس، كواحد، هكذا قال، كواحد ليس لديه ما يلوم نفسه عليه.

ـ ليس لأننى لدى شىء معين ألوم نفسى عليه ـ قال ـ ليس الأمر كذلك مطلقا. كما أننى لا أتحدث فى اتجاه الحرام والحلال... ولكننى لا يبدو لى أننى فى سلام مع الناس.

كان يود لو كان له ضمير حى، هكذا قال: حى، يطلب إليه أن يؤدى واجبات أخرى، لا الواجبات المعتادة، وإنما واجبات أخرى، جديدة، أكثر سموًا، تجاه الناس، لأن أداء الواجبات المعتادة لا يمنح الرضا، ويظل المرء يحس وكأنه لم يفعل شيئا على الإطلاق، غير سعيد بنفسه، خائب الرجاء.

- أعتقد أن المرء يكون ناضجًا لسبب آخر - قال - ليس فقط لأنه لم يسرق، ولم يقتل، إلى آخره، ولأنه مواطن شريف... أعتقد أنه يكون ناضجا لسبب آخر، بسبب الواجبات الأخرى، الجديدة. إن هذا هو ما يحس به المرء، وأعتقد ذلك، إنه انعدام الواجبات الأخرى، الأشياء الأخرى، التى يجب أداؤها... أشياء لا بد من عملها حتى نعى، بمعنى جديد.

صمت، ثم تحدث الكاتانى.

- نعم يا سيدى - قال.

وراح ينظر إلى طرفى الحذاء الضخمين.

- نعم - قال - أعتقد أن الحق معك.

وراح ينظر إلى الحذاء، يتدفق الدم فى وجهه، ويفيض بالصحة، ولكن بحزن حيوان قوى غير راض، حصان أو ثور، ومن جديد قال "نعم"، قالها قانعا، مقتنعا، كأنما وضعوا أيديهم على مرض أصيب به، ولم يقل شيئا آخر، ولم يحك عن نفسه، بل أردف فقط يسأل:

- هل أنت أستاذ؟

- أنا، أستاذ؟ - تعجب اللومباردى الكبير.

والعجوز إلى جواره أسمعنا ضحكته "إه!" ضحكة ورقة الشجر الجافة دون كيان صوتى. كان كأنه عود حطب جاف وهو يتحدث.

- إه! - أصدر صوتا - إه!

أصدره لمرتين. وهو يحدق بعينيه، وقد ضاقتا من الضحك، فى الوجه الصغير سميك البشرة، الداكن، كأنه قوقعة سلحفاة جافة.

- إهىء - أصدر بفم على شكل فتحة الحصالة.

- ليس هناك شىء يبعث على الضحك، ياجدى الصغير، ليس هناك ما يبعث على الضحك - قال اللومباردى الكبير وهو يلتفت ناحيته، ومن جديد راح يحكى عن نفسه، من أول الحكاية، عن رحلته إلى ميسينا، وعن أطيانه فى ليونى فورتى، وعن بناته الثلاث، الواحدة منهن أجمل من الأخرى، هكذا قال هذه المرة، وعن حصانه العظيم المعتز بنفسه، وعن نفسه وكيف أنه لا يحس بسلام مع الناس، وكيف أنه يعتقد أن هناك حاجة إلى ضمير جديد، وواجبات جديدة يؤديها، حتى يحس بسلام أكثر مع الناس، وكل هذا موجه هذه المرة للعجوز وحده، ذلك الذى كان ينظر إليه وهو يضحك ويصدر "إه"، صوت بادرة صفير فى بدايته، دون كيان صوتى.

- ولكن لماذا - قال اللومباردى الكبير عند لحظة بعينها - لماذا تجلس بهذا الوضع غير المريح؟ هذا المسند يمكن رفعه.

واستدار العجوز ضئيل الجسم ونظر إلى المسند الخشبى المرفوع وأصدر من جديد "إه" مرتين، ولكنه ظل جالسا جلسة غير مريحة على الحافة، يستند بيديه سميكتى الجلد على عصا خشبية لها عقد يصل طولها إلى طوله هو تقريبا، ومقبضها على شكل رأس ثعبان.

رأيت رأس الثعبان هذه فى حركة الاستدارة التى قام بها لكى يرى المسند، وعندئذ رأيت شيئا أخضر اللون فى فم هذه الرأس الثعبانية، ثلاث ورقات خضراء لغصن برتقال، ورآنى العجوز الضئيل ومن جديد أصدر "إه" وتناول الفرع الصغير ووضعه فى فمه هو، الذى يشبه شق الحصالة، كان هو أيضا رأس ثعبان.

- آه، أنا أعتقد أن الأمر هو ذاك - قال اللومباردى الكبير، وهو يتحدث هذه المرة إلى الجميع بصفة عامة. - لانحس بالرضا فى أدائنا واجبنا، وواجباتنا... لا نبالى بأدائها. إذ إننا نظل فى حال سيئة. وأنا أعتقد أنه لهذا السبب بعينه... لأنها واجبات قديمة أكثر من اللازم، قديمة جدا ولهذا أصبحت سهلة جدا، ولم يعد لها معنى يلمسه الوعى...

- ألست أستاذا حقا؟ - قال الكاتانى.

كان الدم يتدفق فى وجهه، مثل ثور، وبحزن الثيران واصل النظر إلى الحذاء.

- أنا، أستاذ؟ - قال اللومباردى الكبير. هل تبدو علىّ سمات الأستاذ؟ لست جاهلا، أستطيع أن أقرأ كتابا، إن شئت، ولكننى لست أستاذا. تعلمت عند السالزيان وأنا صبى، ولكننى لست أستاذا...

وهكذا وصلنا إلى المحطة الأخيرة قبل كاتانيا، وأصبحنا بالفعل فى ضواحى المدينة الكبيرة ذات الأحجار السوداء، ونزل العجوز، ذاك الفرع الجاف، الذى كان يصدر "إه"، ثم وصلنا إلى كاتانيا، كانت الشمس تعم الشوارع ذات الحجارة السوداء والتى كانت تجرى

أمام أعيننا تحت مستوى القطار، شوارع وبيوتا، وحجارة سوداء، ووصلنا داخل محطة كاتانيا، ونزل الكاتانى ونزل اللومباردى الكبير، وعندما أطللت من النافذة رأيت ذى الشوارب ودون الشوارب اللذين كانا قد نزلا.

إجمالا نزل ركاب القطار كله، واستمرت الرحلة بعربات القطار الخاوية فقط تحت الشمس، وسألت نفسى لماذا لم أنزل أنا أيضا.

كان معى على كل حال تذكرة حتى سيراكوزا، فواصلت الرحلة فى العربة الخالية، تحت الشمس، عبر السهول الخالية. ومن الممر وأنا عائد إلى الديوان فوجئت بوجوده، واقفا فى مكانه، ملفوفا فى شملته، وبيريه الجوخ الخفيف على رأسه، ذلك الشاب وبوجهه اصفرار المرض، وبقيت معه، أنظر إليه وينظر إلى، دون كلمة واحدة، ولكننى كنت مسرورا لأننى معه، سافرت وسافرت، تحت الشمس عبر السهول الخالية، حتى أصبحت السهول ملونة بأخضر الملاريا، ووصلنا إلى لنتينى، تحت أقدام منحدرات ممتدة خضراء من شجر البرتقال والملاريا، ونزل الشاب الملفوف بالعباءة قد جمد البرد حركته فى الشمس، على الرصيف الخالى، وقد أكلت الملاريا جسده.

هكذا أصبحت وحدى، وأصبحت الحقول صخرية، نحو سيراكوزا على شاطئ البحر، ثم رفعت عينى فرأيت فى الخارج دون الشوارب، واقفا على قدميه، فى الممر، ينظر إلىّ.

ـ ٨ ـ

ابتسم لى.

كان فى الممر معطيا ظهره للشمس، وحقول الصخر والبحر خلف ظهره، وكنا نحن الاثنين، أنا وهو، وحدنا فى العربة، وربما فى القطار كله، وهو يشق طريقه بين الحقول الخالية.

كان دون الشوارب يبتسم لى بوجه مدخن سيجار، وكان ضخما فى المعطف باذنجانى اللون، والقبعة بادنجانية اللون، دخل، وراح يجلس.

ـ تسمح لى، أليس كذلك؟ ـ قال بعد أن قام بالجلوس.

ـ طبعا طبعا ـ أجبت ـ كيف لا؟

وكان هو مسرورا أنه تمكن من البقاء جالسا بعد ترحيبى أنا، مسرورا ليس لمجرد الجلوس فى حد ذاته، فقد كانت العربة كلها خالية، ولكن لأنه جلس هناك، حيث كنت أنا، هناك حيث كان هناك آخر، إنسان آخر.

ـ هيئ لى أننى رأيتك تنزل فى كاتانيا ـ أبديت أنا ملاحظتى.

- آه، هل رأيتنى؟ - قال هو مسرورا - رافقت صديقا حتى قطار كالتانيسيتا. ثم ركبت من جديد فى اللحظة الأخيرة.

- هو ذلك، هو ذلك - قلت أنا.

- ركبت من العربة الأخيرة.

- هو ذلك، هو ذلك - قلت أنا.

- لحقت بها فى آخر لحظة.

- هو ذلك، هو ذلك - قلت أنا.

- كانت هناك عربة درجة أولى وأخرى درجة ثانية فى الوسط - قال هو - وكان على أن أجلس هناك بعيدا عن حقائبى.

- هو ذلك، هو ذلك - قلت أنا.

- ولكن فى لنتينى نزلت وجئت إلى هنا - قال هو.

وقلت أنا من جديد: - هو ذلك، هو ذلك.

ولم يضف هو شيئا، وظل هنيهة صامتا، مسرورا، راضيا بأنه استطاع أن يشرح كل شىء. ثم تنهد، وابتسم، وقال:

- كنت قلقا على حقائبى!

- طبعا - قلت أنا - لا أحد يعرف ماذا يمكن...

- هذا حقيقى أما ترى؟ - قال هو. - لاأحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث مع هذه الأنماط السيئة التى تراها فى كل مكان.

- فعلا - قلت أنا - مع كل هذه الأنماط السيئة...

- مثل ذلك الذى نزل فى لنتينى - قال هو - هل رأيته؟

ـ من؟ ـ قلت أنا ـ ذلك الملفوف؟

ـ نعم، ـ قال هو ـ ذلك الملفوف... ألم يكن له وجه مجرم؟

لم أرد أنا، فتنهد هو، وتلفت حوله، قرأ لوحات الإرشادات الصغيرة الموجودة فى الديوان كلها، نظر إلى الحقول الخالية ذات المنحنيات السريعة والمتساوية فى صخورها الجرداء على طول البحر، ثم ابتسم، وقال أخيرا:

ـ أنا موظف فى الشهر العقارى!

ـ أوه! ـ قلت أنا ـ حقا؟ و... ماذا تفعل؟ هل تذهب إلى بيتك فى إجازة؟

ـ نعم ـ أجاب ـ أذهب بتصريح... إلى شاكا، بلدى.

ـ إلى شاكا ـ قلت أنا ـ وهل أنت قادم من بعيد؟

ـ من بولونيا، رد هو ـ أنا موظف هناك. وزوجتى من بولونيا. وكذلك أبنائى.

كان مسرورا وقلت أنا:

ـ وتذهب إلى شاكا من هنا؟

ـ نعم، من هنا، قال هو ـ سيراكوزا ثم سباكافورنو فموديكا وجينسى ودونافوجاتا...

ـ فيتوريا، فالكونارا ـ قلت أنا. ـ ليكاتا.

ـ آه نعم! ـ قال هو ـ جيرجنتى...

ـ أجريجنتو لو سمحت ـ قلت أنا ـ ولكن أما كان يناسبك أكثر أن تواصل حتى كالتانيسيتا؟

ـ طبعا كان يناسبنى ـ قال هو ـ يوفر لى ثمانى ليرات. ولكن من هنا لا تفارق البحر...

ـ وهل تحب البحر؟ ـ سألته أنا.

ـ لا أعرف ـ أجاب هو ـ أعتقد أننى أحبه. على كل الحال هذا الخط يعجبنى...

وتنهد، وابتسم، ثم نهض وقال:

ـ هل تسمح لى؟

ذهب إلى الديوان المجاور وعاد بسلة طعام صغيرة مثل التى يستخدمها الأولاد، ولكنها مصنوعة من الألياف، ووضعها على ركبتى ساقيه القصيرتين، وفتحها، وأخرج منها بعض الخبز وابتسم.

ـ خبز ـ قال ـ إيه! إيه!

ثم أخرج بيضا مقليا مستطيل الشكل وابتسم من جديد.

ـ أومليت ملفوف على شكل سمكة! ـ قال.

وابتسمت أنا ردا عليه. وقطع هو البيض بسكين صغير إلى قطعتين وقدم لى قطعة منهما.

ـ أوه، شكرا! ـ قلت وأنا أتحاشى يده المسلحة بالبيض المقلى.

أظلم وجهه.

ـ كيف؟ ـ قال ـ لا تريد أن تقبله منى؟

ـ لست جائعا! ـ قلت أنا.

وهو: لست جائعا؟ إن السفر يشعرنا دائما بالجوع.

وأنا: ولكن لم يحن وقت الأكل بعد. سوف آكل فى سيراكوزا.

وهو: حسنا، ابدأ الآن، وأكمل فى سيراكوزا.

وأنا: ولكن هذا مستحيل، سوف تفسد على شهيتى.

أخذ وجهه يزداد تأثرا وأخذ يلح.

- أوه! أنا موظف فى الشهر العقارى! - قال من جديد. وقال: لا تسرع بالرفض! خذ لمجرد أن تقبل منى...

قبلت وأكلت معه البيض المقلى الملفوف على شكل السمكة، وكان هو سعيدا، وعلى نحو ما كنت أنا كذلك مسرورا، بطريقة ما، لأننى أرضيته، وأنا أمضغ البيض المقلى وألوث يدى بالبيض المقلى مثله. وفى تلك الأثناء كانت أوجوستا قد مرت بجبلها وبيوتها الميتة فى وسط البحر، بين الطائرات والسفن، وبين الملاحات، تحت الشمس، وكنا نقترب من سيراكوزا، نسافر عبر الحقول الخالية، على طول بحر سيراكوزا.

- سوف تأكل بشهية أفضل فى سيراكوزا - قال وأردف: هل ستتوقف هناك؟

- سوف أتوقف هناك - أجبت.

- هل تقيم بها؟ - قال هو.

- لا - أجبت أنا - لا أقيم هناك.

- أليس لك أحد فى سيراكوزا؟ - قال هو.

- كلا - أجبت.

- سوف تذهب للعمل إذن؟ - قال هو.

- لا - أجبت أنا - لا.

نظر لى فى حيرة، وهو يأكل البيض المقلى، وينظر لى وأنا آكل بيضه المقلى، وقلت أنا:

ـ لك صوت باريتون جميل، أنت.

احمر وجهه فورا.

ـ أوه! ـ قال.

ـ لماذا؟ ألم تكن تعرف؟ ـ قلت أنا.

ـ أوه، من ناحية المعرفة كنت أعرف ـ قال وقد احمر وجهه مسرورا.

وقلت أنا: ـ طبعا. مستحيل أن تعيش حتى الآن دون أن تعرف. خسارة أنك تعمل فى الشهر العقارى بدلا من أن تعمل مغنيا...

ـ فعلا ـ قال هو ـ كان مما يسعدنى... أن أشارك فى فالستاف، أو فى أعمال ريجوليتو... على جميع مسارح أوروبا.

ـ أو حتى فى الشوارع، ماذا يهم؟ ذلك أفضل من أن تعمل موظفا ـ قلت أنا.

ـ أوه، نعم، ربما... ـ قال هو.

وصمت قليلا حائرا، وظل صامتا، وهو يمضغ، وخلف منحنى حقول الصخر، فى مقابل البحر، ظهرت صخرة كاتدرائية سيراكوزا.

ـ ها نحن فى سيراكوزا ـ قلت أنا.

نظر لى وابتسم.

ـ هكذا تكون قد وصلت ـ هكذا علق.

تبادلنا التحية، دخل القطار المحطة.

ـ أعتقد أنك سوف تجد القطار المقابل على الفور ـ قال هو.

ونزلت أنا فى سيراكوزا، المكان الذى ولدت فيه ومنه سافرت قبل خمسة عشر عاما، إحدى محطات حياتى. ومن جديد، وهو ينزل حقائبه، حيانى الرجل، موظف الشهر العقارى المزعوم، أو عموما الرجل دون الشوارب.

ـ إلى اللقاء ـ قال لى ـ ولكن ماذا سوف تفعل فى سيراكوزا؟

كنت بالفعل قد ابتعدت بما يكفى لكى لا أرد عليه ولم أرد عليه، وابتعدت نحو بوابة الخروج ولم أره بعد ذلك.

وأصبحت فى سيراكوزا.

ولكن ماذا عساى أن أفعل فى سيراكوزا؟ لماذا جئت إلى سيراكوزا؟ لماذا أخذت تذكرة إلى سيراكوزا بالتحديد وليس لأى مكان آخر؟ من المؤكد أننى كنت لا أبالى بالمكان الذى أقطع له التذكرة. ومن المؤكد أننى كنت غير مبال بأن أكون فى سيراكوزا أو فى غير سيراكوزا. كله يستوى بالنسبة لى. كنت فى صقلية. كنت أزور صقلية. وأستطيع أيضا أن أركب القطار من جديد وأعود إلى البيت.

ولكننى كنت قد عرفت رجل البرتقال، وذا الشوارب ودون الشوارب، واللومباردى الكبير، والكاتانى، العجوز الضئيل صاحب الصوت الذى يشبه عود الحطب الجاف، والشاب مريض الملاريا الملفوف فى شملته، وبدا لى أنه ربما لم تكن لامبالاة منى أن أكون فى سيراكوزا أو فى غيرها.

"يا لك من أبله ـ قلت لنفسى ـ لماذا لم أذهب لزيارة أمى بدلا من هذا؟ بالنقود نفسها وفى الزمن نفسه ، فى الجبال... "

ووجدت فى يدى بطاقة التهنئة البريدية لأمى ولم ألقها فى صندوق البريد وفكرت فى أنه اليوم الثامن. "يا لها من كارثة!" ـ فكرت ـ يا للعجوز المسكينة! إذا لم أحمل إليها أنا نفسى هذه البطاقة فلن تصل إليها خلال اليوم". وذهبت إلى محطة السكك الحديدية الفرعية لكى أستعلم ما إذا كانت النقود تكفينى لكى أواصل الرحلة حتى أمى، فى الجبال.

الجــزء الثانى

- ٩ -

فى الساعة الثالثة، وفى شمس ديسمبر، خلف البحر الذى كان يدوى مختفيا، كان القطار الصغير يدخل، بعرباته الصغيرة الخضراء، فى حلق صخرى ثم بعد ذلك فى دغل من التين الشوكى. كانت هذه السكك الحديدية الفرعية فى صقلية من سيراكوزا عبر الجبال: مارا بسورتينو، بالاتسولو، مونته لاورو، فيتسينى، جراميكيله.

بدأت المحطات تمر، كانت بنايات من الخشب تتشعب عاليا مثل المذرى تضرب الشمس سطحها الأحمر، ويتسع الدغل ويضيق، بأشجار تين شوكى كأنها شوكة طعام. كانت من حجر سماوى، وكلها أشجار تين شوكى، وعندما كنت يتصادف وجود روح تجد صبيا يروح أو يجىء، على طول الخط، لجمع الثمار المتوجة بالأشواك، التى نمت، كالمرجان، على أحجار التين الشوكى. كان يصرخ على القطار وكان القطار يمر من أمامه.

كانت هناك ريح تمر داخل منحنيات الغابة، كان صفيرها يسمع بالمحطات، كانت ريحا خفيفة تصدر صوتا، يشبه ما كان بالبحر،

من طلقات ناعمة. ثم كانت ترفرف راية صغيرة حمراء، وهكذا كان يصل القطار ثم يغادر. وبين أشجار التين الشوكى كانت البيوت تظهر، وكان القطار يتوقف فوق قناطر الجسور، ومن الجسر كانت تدور الأسطح المدرجة، ثم يعبر الأنفاق، ويخرج من جديد بين أشجار التين الشوكى والحقول الصخرية، ومن جديد لا تقابل من الأنفس إلا صبيا.

كان يصرخ ويصرخ على القطار، بينما كان القطار يمر أمامه، والشمس فوق صرخته، وفوق الرايات الحمراء، وفوق قبعات نظار المحطات الحمراء.

وفجأة، بعد ذلك، أصبحت قبعة حمراء، وراية حمراء، وصرخة صبى دون شمس، وتحت أشجار التين الشوكى كان الظلام، ثم يظهر ضوء. خاض حمار رمادى فى جدول ماء، وأخذ الطريق يصعد وتمر أنفاق، ثم مرت ظهور جبال لمسافات طويلة، وفى المحطات، بعيدا، فى أحد الأغوار، كانت ترى أربعة أضواء، خمسة أضواء، قرى.

سمعنا هدير سيل منحدر وصوتا يقول: وصلنا فيتسينى - ويتركز هدير المياه أسفل القطار، كنا قد توقفنا، ونزلنا من جانب فى المياه فى ظلام الليل الدامس، ومن ناحية كان الجبل، ومن الناحية الأخرى كانت السماء.

كانت تلك فيتسينى، وقضيت فيها الليل، فى غرفة فى لوكاندة كانت تفوح منها رائحة الخروب. لم تكن هناك حافلة تقلنى إلى مقصدى، وكان يغلبنى نعاس ليلتين، وبرد، ولم يهمنى أننى لم أجد

الحافلة، لم يهمنى شىء سوى النوم، ونمت هناك نوما عميقا كأنه قبر، تحت رائحة الخروب. ونهضت فى اليوم التالى، الذى كان خروبيا أيضا، بتلك الرائحة التى أصبحت بداخلى، على الضوء الذى كان يدخل من النافذة الخالية من الخصاص، وسافرت، وكأن النعاس يلازمنى داخل الحافلة على طول النهر، من فيتسينى المرتفعة فوق ثلاثة وديان، وحتى أماكن أعلى فى الجبال، ولثلاث ساعات، حتى قال واحد: - جليد - ووصلنا.

- ١٠ -

فكرت: "انظر! ها أنا ذا عند أمي!" هكذا حادثت نفسي عندما نزلت من الحافلة عند بداية الدرج الطويل الذي يؤدي إلى الأحياء العالية من بلدة أمي.

كان اسم البلدة مكتوبا على جدار مثلما هو مكتوب على البطاقات البريدية التي كنت أرسل بها كل عام إلى أمي، أما باقي المنظر، الذي كان يتمثل في ذلك الدرج الصاعد بين البيوت القديمة، والجبال حولها، وبقع الجليد فوق الأسطح، كان أمام ناظري، كأنني تذكرت فجأة أنه كان موجودا ذات مرة أو مرتين في طفولتي. وبدا لي أن كوني هناك لم يكن بالنسبة لي غير مهم، وكنت سعيدا بأنني جئت، وبأنني لم أبق في سيراكوزا، وأنني لم أعد إلى ركوب القطار إلى إيطاليا العليا، وبأنني لم أنه رحلتي بعد. كان هذا هو أهم شيء في وجودي هناك: أنني لم أكن قد أنهيت رحلتي، بل أنني ربما بالكاد بدأتها الآن، لأنني هكذا على الأقل كنت أشعر وأنا أنظر إلى الدرج الطويل والمنازل والقباب في أعلى، وإلى المنحدرات ببيوتها وصخورها، والأسطح في الوادي العميق، ودخان المداخن

أعلى البيوت، وبقع الجليد، والقش، والجمهرة الصغيرة من الأطفال الصقليين الحفاة على قشرة الثلج التى تكونت على الأرض، فى الشمس، حول نافورة من الحديد الزهر.

"انظر، لقد أصبحت عند أمى"، فكرت من جديد، ووجدتها مفاجأة، حالة أن أكون هناك، مثلما هو مفاجئ أن يجد الإنسان نفسه فى نقطة معينة من الذاكرة، ووجدتها كذلك رائعة، وشعرت كأننى دخلت رحلة فى بعد رابع. شعرت كأن شيئا لم يكن، أو كأنه مجرد حلم، أو لحظة بينية للنفس، بين الوجود فى سيراكوزا والوجودُ هناك، وأن وجودى هناك كان نتيجة قرارى، نتيجة حركة ذاكرتى، ولا جسمى، وكذلك كان أيضاً صباح وجودى هناك، وكذلك كان أيضا برد الجبل، ومتعتى فى وجودى هناك، كما لم يعترنى أى ندم على أننى لم أصل المساء السابق، فى موعدى، قبل انتهاء عيد تسمية أمى، كأن ذلك النور كان نور نهار يوم ٨ وليس نهار يوم ٩، أو كأنه نهار يوم فى بعد رابع.

كنت أعرف أن أمى تسكن فى الأحياء المرتفعة، وكنت أتذكر أننى تسلقت هذا الدرج عندما كنا نأتى لزيارة الأجداد فى طفولتى، وبدأت أصعد. كانت هناك حزم من الحطب على الدرجات، أمام البيوت، وصعدت، وبين الحين والآخر كانت هناك حافة من الجليد، وفى البرد، فى شمس النهار، وقد انتصف بالفعل، وصلت أخيرا إلى أعلى، فوق بلدة الجبل الكبيرة والوديان العميقة وبقع الجليد المنتشرة بها. لم أكن أرى ناسا، بل أطفالاً حفاة بأقدام أصابتها لسعات البرد بالقرح، ودرت بين المنازل فى أعلى حول قباب الكنيسة الكبيرة والتى تعرفت عليها هى أيضا قديمة فى ذاكرتى.

تجولت وبطاقة التهنئة البريدية فى يدى، وعليها كان اسم الشارع ورقم البيت الذى تسكنه أمى، واستطعت أن أتجه إليه مباشرة بسهولة، تهدينى فى بحثى عنه البطاقة البريدية، كأننى ساعى بريد، ويقودنى أيضا شىء من الذاكرة. كما أننى سألت فى المحلات القليلة التى رأيت فيها السلال والبراميل، وهكذا وصلت لزيارة السيدة كونشيتسيونى فيراوتو، أى أمى، وأنا أبحث عنها كساعى بريد، والبطاقة البريدية فى يدى واسم كونشيتسيونى فيراوتو على شفتى. كان البيت هو الأخير فى الشارع الذى أشاروا إلى به، يرتفع على رأس حديقة صغيرة، وله سلم خارجى صغير. صعدت، فى الشمس، ونظرت مرة أخرى على العنوان المكتوب على البطاقة البريدية، وأصبحت عند أمى، تعرفت على العتبة، ولم يكن غير مهم أن أكون هناك، كانت ذروة الرحلة فى البعد الرابع.

دفعت الباب ودخلت البيت ومن غرفة أخرى قال صوت: من؟ - وأنا تعرفت على ذلك الصوت، بعد خمسة عشر عاما لم أكن أتذكره فيها، نفس صوت الخمس عشرة سنة التى مضت تذكرته الآن: كان عاليا واضحا وتذكرت أمى تتحدث فى طفولتى من غرفة أخرى.

- السيدة كونشيتسيونى ـ قلت.

- ١١ -

ظهرت السيدة، طويلة القامة، برأس فاتحة اللون، وأنا تعرفت فيها على أمى بالتمام والكمال، امرأة طويلة شعرها كستنائى يميل إلى الشقرة، والذقن محدد، والأنف محدد، والعينان سوداوان. على كتفيها غطاء أحمر تجد الدفء بداخله.

ضحكت - كل سنة وأنت طيبة - قلت.

- أوه، إنه سيلفسترو - قالت أمى، واقتربت منى.

وأنا أعطيتها قبلة الابن على خدها، وقبلتنى هى على خدى وقالت: - أى شيطان حملك إلى هذه الأنحاء؟

- كيف تعرفت على؟ - قلت أنا.

أخذت أمى تضحك. وأنا أيضا أسأل نفسى - قالت.

جاءت رائحة شواء سمك الرنجة، وهكذا أردفت أمى: لنذهب إلى المطبخ... لقد تركت الرنجة على النار!

ذهبنا إلى الغرفة المجاورة حيث كانت الشمس تضرب ظهر السرير الحديدى الداكن، ومن هناك مررنا إلى المطبخ الصغير حيث تضرب الشمس كل شىء. وعلى الأرض وفى دواسة من

الخشب كانت النار تشتعل فى موقد جمر من النحاس. وفوقه كانت تشوى الرنجة وهى تدخن وانحنت أمى عليها لتقلبها على الجانب الآخر. سوف ترى كم هى لذيذة ـ قالت.

ـ نعم ـ قلت أنا، وأخذت أستنشق رائحة الرنجة، ولم تكن معدومة الأهمية بالنسبة لى، كانت تعجبنى، وتعرفت فيها على رائحة الطعام فى طفولتى ـ لا أتصور أن هناك شيئا ألذ منها ـ قلت. وسألت: ألم نكن نأكل منها ونحن أطفال؟

ـ بالتأكيد، ـ قالت أمى ـ رنجة فى الشتاء وثمار الفلفل فى الصيف. كانت هذه هى طريقتنا فى الأكل دائما. ألا تتذكر؟

ـ والفول بالقرضو البرى[١]، ـ قلت وأنا أتذكر.

ـ نعم ـ قالت أمى ـ الفول مع القرضو. كنت مجنونا بالفول مع القرضو البرى.

ـ آه! ـ قلت أنا ـ هل كنت أجن به؟

وقالت أمى: ـ نعم، كنت تود دائما لو تأخذ منه صحنا ثانيا... وكان كذلك أيضا العدس المطبوخ بالبصل والطماطم الجافة ودهن الخنزير...

مع عود روز مارى، أليس كذلك؟ ـ قلت أنا.

وقالت أمى: ـ نعم... وعود من روز مارى.

وأنا: ـ وهل كنت أتمنى منه أيضا صحنا ثانيا؟

وأمى: ـ طبعا! كنت مثل عيسو[٢]... كنت على استعداد للتخلى

---

(١) نوع من الحضروات (المراجع).

(٢) شخصية كتابية وهو أكبر أبناء إسحاق (المراجع).

عن البكورية فى مقابل صحن عدس ثان... كأنى أراك تعود من المدرسة، فى الثالثة، والرابعة بعد الظهر، بالقطار...

- فعلا - بقطار البضائع، فى مخزن العفش... فى البداية كنت وحدى، ثم أصبحت أنا وفليتشه، ثم أنا وفليتشه وليبوريو...

- كنتم جميعا كالعصافير السوداء الصغيرة - قالت أمى - برؤوسكم المليئة بالشعر، ووجوهكم السمراء، وأيديكم السوداء دائما... وتسألون على الفور: هل هناك عدس اليوم يا ماما؟

- أيام كنا نسكن فى منازل السكة الحديدية الواقعة على الخط، - قلت أنا. كنا ننزل من القطار فى المحطة، فى سان كاتالدو، وفى سيراديفالكو، وفى أكوافيفا، وفى كل تلك الأماكن التى تجولنا بها، كنا نضطر للسير كيلومترا وكيلومترين على الأقدام حتى نصل إلى البيت...

قالت أمى: نعم... بل وثلاث كيلومترات أحيانا. كان القطار يمر وكنت أنا أعرف أنكم فى الطريق إلى البيت على طول شريط السكة الحديدية، فكنت أضع العدس على النار ليسخن، والرنجة لتشوى ثم أسمعكم تصرخون: أرضا، أرضا.

- أرضا؟ كيف؟ - سألت أنا.

- بالتأكيد، أرضا! كانت إحدى ألعابكم، - قالت أمى. ثم ذات مرة فى راكالموتو كان بيت العمال الذى نسكنه فوق مطلع، وكان على القطار أن يبطئ سرعته، وتعلمتم النزول من القطار وهو يسير، لتنزلوا أمام البيت، وأنا كان خوفى رعبا من أن تسقطوا تحته، وكنت أنتظركم خارج البيت بالعصا...

وكنت تضربيننا؟ ـ قلت أنا.

وأمى: ـ بالتأكيد! ألا تتذكر؟... كنت أكسر سيقانكم بتلك العصا. وأيضا كنت أترككم دون طعام، فى بعض الأحيان.

نهضت والرنجة فى يدها، تمسكها من ناحية الذيل، وتتفحصها، من جانب، ومن الجانب الآخر، وأنا أرى، فى رائحة الرنجة، وجهها لا ينقصه شىء عما كان عليه عندما كان وجها شابا، كما تذكرته فى تلك اللحظة، ومع العمر الذى كان يضيف عليها بعض الشىء. هذا ما كانته أمى، ذكرى ما كانت عليه قبل خمسة عشر عاما، قبل عشرين عاما، عندما كانت تنتظرنا ونحن نقفز من قطار البضاعة، حين كانت شابة ورهيبة، والعصا فى يدها. الذكرى، وعمر البعاد كله، والإضافة الآنية، هى فى النهاية واقعية مرتين. كانت تتفحص الرنجة وهى ترفعها عاليا، من ناحية ومن الناحية الأخرى، لم تكن محروقة فى أى موضع منها، وكانت مع ذلك مطهية كلها، الرنجة أيضا كانت كذلك، الذكرى وإضافة آنية. كان هذا هو كل شىء، الذكرى والإضافة الآنية، الشمس، البرد، المجمرة النحاسية فى وسط المطبخ، وما اكتسبته بإدراكى لذلك الموضع من العالم الذى كنت فيه، كان هذا هو هكذا، حقيقى مرتين، وربما لهذا السبب لم يكن عديم الأهمية بالنسبة لى أن أحس بوجودى هناك، أن أرتحل، نحو ذلك الذى كان حقيقيا مرتين، بما فى ذلك الرحلة من ميسينا إلى هنا، والبرتقال على المركب العبارة، واللومباردى الكبير فى القطار، وذو الشوارب ودون الشوراب، والملاريا الخضراء، وسيراكوزا، صقلية نفسها فى النهاية، كل شىء واقعى مرتين، وفى رحلة، بعد رابع.

ـ ١٢ ـ

تم تنظيف الرنجة ووضعها فى الصحن، وإضافة الزيت إليها، وجلسنا أنا وأمى إلى المائدة. أعنى فى المطبخ والشمس بالنافذة خلف أكتاف أمى الملفوفة فى الغطاء الأحمر، وشعرها الكستنائى الفاتح جدا. كانت المائدة ملاصقة للحائط، وأنا وأمى جالسان، أحدنا أمام الآخر، وموقد الجمر بأسفل، وصحن الرنجة على المنضدة، يكاد يطفح بالزيت. ورمتنى أمى بفوطة، ومدت نحوى صحنا صغيرا وشوكة، وأخرجت من الدرج رغيف خبز ضخما مأكولا نصفه.

ـ هل يهمك ألا أفرد المفرش؟ ـ سألت.

ـ كلا، إطلاقا ـ قلت أنا.

وقالت هى: لا أستطيع أن أغسل كل يوم... أصبحت الآن عجوزا.

ولكننا كنا دائما فى الطفولة نأكل بدون مفرش، باستثناء يوم الأحد ويوم العيد، وكانت أمى تقول دائما: إنه لا يمكنها الغسيل كل يوم، هكذا رحت أتذكر.

بدأت آكل الرنجة والخبز، وسألت: لماذا لا يوجد حساء خضروات؟

نظرت لى أمى وقالت: وهل كنت أعرف أنك ستأتى؟

ونظرت إليها أنا، وسألتها: ولكننى أتكلم عنك. ألا تطبخين الحساء لنفسك؟

ـ تتحدث عنى أنا؟ – قالت أمى: إننى لم آكل الحساء فى حياتى تقريبا... كنت أطبخه لكم ولأبيكم، ولكن كان هذا هو الأكل بالنسبة لى: الرنجة فى الشتاء والفلفل المشوى فى الصيف، وكثير من الزيت، وكثير من الخبز...

ـ هذا دائما؟ ـ سألت أنا.

ـ دائما، ولم لا؟ ـ قالت أمى ـ مع الزيتون أيضا، بالطبع، وفى بعض الأحيان لحم الخنزير، والسجق، عندما يكون لدينا خنازير...

ـ وهل توفر لدينا خنازير؟ ـ سألت أنا.

ـ نعم. ألا تتذكر؟ ـ قالت أمى ـ فى بعض السنوات كان عندنا خنازير، فى بيوت العاملين بالسكك الحديدية، كنا نربيها على التين الشوكى، ومن ثم نذبحها.

وأنا تذكرت هنا الحقول حول ذلك البيت القريب من شريط القطار وأشجار التين الشوكى وصرخات الخنازير. كنا بخير حال فى بيوت العاملين، جال ذلك بخاطرى. تلك الحقول كانت ساحة للجرى وهى بلا زراعة، بلا فلاحين، يمر بها فقط بعض الأغنام، والرجال العاملون بالكبريت وهم عائدون ليلا من المناجم، عندما نكون قد أوينا إلى الفراش. كنا بخير حال حسبما تذكرت، وسألت أمى: كان لدينا دجاج أيضا، أليس كذلك؟

ردت أمى بالإيجاب، وبأنه كانت لدينا بعض الدجاجات بالطبع، وقلت أنا: وكنا نصنع الموستاردا...

وأمى: كنا نصنع كل الأصناف... الطماطم المجففة فى الشمس... والحلوى من التين الشوكى.

- كنا بخير حال - قلت أنا، وتذكرت، وأنا أفكر فى الطماطم التى كانت تجفف تحت الشمس فى ظهيرات الصيف دون نفس واحدة حية فى الحقول الواسعة. كان ريفا جافا، بلون الكبريت، وتذكرت أنا طنين الصيف المتواصل وتدفق الصمت، ومن جديد فكرت فى أننا كنا بخير حال.

- كنا بخير حال - قلت - كان لدينا الشبك المعدنى.

- كانت أماكن غالبا ما تنتشر فيها الملاريا! قالت أمى.

- تلك الملاريا الكبرى! قلت أنا.

- كبرى فعلا! قالت أمى.

- ومعها الزيزان! ... قلت أنا وفكرت فى الزيزان فيما وراء الشبك المعدنى للنوافذ، والشرفة، بالخلاء تحت الشمس، وقلت: - كنت أظن أن الملاريا هى الزيزان!

- ها! ها! - ضحكت أمى - ربما لهذا السبب كنت تمسك منها الكثير؟

- كنت أمسك بها؟ - قلت أنا - ولكننى كنت أظن أن غناءها هو الملاريا، وليس هى نفسها... وهل كنت أمسك بها؟

- بالتأكيد! - قالت أمى. عشرون، ثلاثون فى كل مرة.

وأنا: - أعتقد أننى كنت أمسكها على أنها صرار الليل... - وسألت: - ماذا كنت أفعل بها؟

وضحكت أمى من جديد ـ أظن أنك كنت تأكلها ـ قالت.

ـ هل كنت آكلها؟ ـ تعجبت أنا .

ـ نعم ـ قالت أمى ـ أنت وأخوتك.

كانت هى تضحك فسألت فى ارتياب ـ كيف يمكن ذلك؟ ـ سألت.

وقالت أمى: ـ ربما كنتم تجوعون.

وأنا : ـ كنا نجوع؟

وأمى: ربما .

ـ ولكننا كنا بخير حال فى بيتنا! ـ احتججت.

نظرت لى أمى: نعم، قالت. كان أبوك يستلم راتبه آخر كل شهر، ولهذا كنا بخير حال فى الأيام العشرة الأولى، وكنا محسودين من الفلاحين وعمال الكبريت أجمعين... ولكن بعد الأيام العشرة الأولى كنا نصبح مثلهم. كنا نأكل الحلزون.

ـ القواقع؟ ـ قلت أنا .

ـ نعم، والشيكوريا البرية، ـ قالت أمى.

وسألت أنا : وهل كانوا لا يأكلون سوى القواقع؟

وردت أمى: ـ نعم الفقراء جميعا ما كانوا فى العادة يأكلون سوى القواقع. أما نحن فكنا فقراء فى العشرين يوما الأخيرة من كل شهر.

وقلت أنا : وكنا نأكل القواقع عشرين يوما؟

وقالت أمى: القواقع والشيكوريا البرية.

فكرت أنا فى هذا وابتسمت ثم قلت: أتخيل أنها كانت مع ذلك لذيذة.

وقالت أمى: ممتازة... ويمكن تحضيرها بطرق كثيرة.

وقلت أنا: ـ وكيف تكون هذه الطرق الكثيرة؟

وقالت أمى: مجرد أن تسلق على سبيل المثال. أو تطهى بالثوم والطماطم. أو تخلط بالدقيق وتقلى.

وقلت أنا: يا لها من فكرة! تخلط بالدقيق وتقلى؟ بقشرتها؟

وقالت أمى: هذا مفهوم! إنها تؤكل عن طريق شفط اللحم من خلال القشرة... ألا تتذكر؟

وقلت أنا: أذكر، أذكر... يبدو لى أن المذاق كله كان فى مص القشرة.

وقالت أمى: تنقضى ساعات فى مص الحلزون...

- ١٣ -

خيم علينا الصمت دقيقتين أو ثلاثا، ونحن نأكل الرنجة، ثم استأنفت أمى الكلام، وشرحت بعض طرق طبخ القواقع. هكذا أستطيع أن أعلمها لزوجتى حسبما قالت أمى. ولكننى قلت لها إن زوجتى لا تطبخ القواقع. وأرادت أمى أن تعرف ماذا تطبخ زوجتى بصفة عامة وحكيت لها أنا أنها فى العادة تطبخ الطعام المسلوق.

- مسلوق؟ أى مسلوق؟ - تعجبت أمى.

- اللحم المسلوق - قلت أنا.

- اللحم؟ أى لحم؟ - تعجبت أمى.

- لحم الثور، - قلت أنا.

نظرت لى أمى بتقزز. سألتنى ما طعمه. وقلت لها إنه ليس له أى طعم خاص، إننا نأكل فى العادة مكرونة بالمرقة.

- واللحم؟ - سألتنى أمى.

وقلت لها إنه فى الحقيقة لا يوجد لحم بعد أن يتم تناول المرقة. شرحت لها فى النهاية كل شىء، شىء من الجزر، والكرفس وقطعة

العظم التى تسمى لحما، كل شىء حكيته لها بعناية حتى تفهم أن الحياة فى إيطاليا العليا أطيب من الحياة فى صقلية، على الأقل فى وقتنا الحاضر، وعلى الأقل فى المدن، وأننا بصورة أو بأخرى كنا نأكل حسبما يليق بالآدميين.

ولكن أمى استمرت تنظر لى بتقزز.

ـ أوه! ـ تعجبت أمى ـ تأكلون هذا كل يوم؟

وقلت أنا: ـ مؤكد! ليس أيام الآحاد وحسب! ما دام هناك عمل وما دام هناك كسب، على الأقل!

أخذت الريبة أمى ـ كل يوم! ألا يدرككم الملل؟ ـ قالت.

ـ وهل تملين أنت من الرنجة؟ ـ قلت أنا.

ـ ولكن الرنجة لها نكهة، ـ قالت أمى. وراحت تحكى لى عن كل أنواع الرنجة التى تذكر أنها أكلتها طيلة حياتها، قالت إنها فى هذا، أى فى قدرتها على أكل الرنجة تلو الرنجة، كانت مثل أبيها، جدى.

ـ أعتقد أن الرنجة فيها شىء مفيد للمخ ـ قالت ـ كما أنها تعطى أيضا حيوية للون وطيبا. وأوضحت كل ما تعتقد أنه مفيد فى الرنجة بالنسبة للأشياء والوظائف الحيوية فى الإنسان، وأعلنت أنه ربما كان جدى رجلا عظيما بفضل الرنجة فى حد ذاتها.

ـ هل كان جدى رجلا عظيما؟ ـ سألت أنا. أخذت أتذكر بصورة غير واضحة أننى كبرت فى طفولتى المبكرة البعيدة، فى ظل يمتد فوقى، لابد أنه كان ظل عظمة جدى، وسألت: هل كان جدى رجلا عظيما؟

ـ بكل تأكيد! ألم تكن تعرف؟ ـ قالت أمى.

وقلت لها أنا: نعم، إننى كنت أعرف ذلك، ولكننى سألتها ما الشىء العظيم الذى صنعه، وصرخت فىَّ أمى أنه كان عظيما فى كل شىء. كان قد أنجب بنات عظيمات وجميلات، كلهن إناث، هكذا صاحت، وبنى لنفسه البيت الذى تعيش فيه هى حاليا، ومع أنه لم يكن بناء فإنه بناه بيديه... - كان رجلا عظيما، قالت. كان يستطيع أن يعمل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم، وكان اشتراكيا عظيما، وصيادا عظيما، وخيَّالا عظيما فى موكب القديس يوسف...

- هل كان يركب الحصان فى موكب القديس يوسف؟ - قلت أنا.

- بكل تأكيد! كان فارسا عظيما، أمهر من الجميع هنا فى البلدة، وفى بياتسا أرميرينا أيضا، - قالت أمى. كيف تتصور أنهم كانوا يخرجون فى موكب للخيالة بدونه؟

وقلت أنا: - ولكنه كان اشتراكيا...

وقالت أمى: كان اشتراكيا... لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنه كان يفهم فى السياسة وكان اشتراكيا...

وقلت أنا: كيف كان يركب الخيل فى موكب القديس يوسف إذا كان اشتراكيا؟ إن الاشتراكيين لا يؤمنون بالقديس يوسف.

- كم أنت بهيم! قالت أمى - لم يكن جدك اشتراكيا مثل الآخرين كلهم. كان رجلا عظيما. كان يستطيع أن يؤمن بالقديس يوسف وأن يكون اشتراكيا. كان له عقل يسع ألف شىء وشيئاً معا. كان اشتراكيا لأنه كان يفهم فى السياسة... ولكنه كان بإمكانه أن يؤمن بالقديس يوسف. لم يكن يقول شيئاً ضد القديس يوسف.

ـ ولكننى أتخيل أن القساوسة هم الذين كانوا يرونه معاديا ـ قلت أنا.

ـ وما الذى كان يهمه من القساوسة؟

وقلت أنا: ـ ولكن الموكب كان عملا من أعمال القساوسة!

ـ أنت أكيد جاهل! ـ تعجبت أمى ـ كان الموكب من الخيول ومن رجال يركبون الخيول. كان موكب خيالة ـ نهضت وذهبت إلى النافذة، وفهمت أنا أننى يجب أن أتبعها إلى هناك ـ أنظر، ـ قالت أمى. كانت النافذة تطل على أسطح المنازل ثم على الوديان الغائرة والنهر والغابات فى الشمس الشتوية، والجبل المواجه تغضنه الأخاديد ويعلوه الجليد. انظر ـ قالت أمى. ونظرت أنا بتركيز أكثر، هذه الأسطح ذات مداخن دون دخان، ومجرى الماء، وغابات الخروب، وبقع الجليد، وبتركيز أكثر، نظرت فى ثنائية واقعها، وقالت أمى:

ـ كان موكب الخيول ينطلق من هناك فى الواجهة، فى اتجاه عمود التلغراف ذاك... هناك كنيسة صغيرة لا نراها، فوق ذلك الجبل، ولكنهم كانوا يضيئونها من الداخل ومن الخارج فتصبح كأنها نجمة وكان موكب الخيول ينطلق من الكنيسة بقناديل وأجراس صغيرة، ويهبط الجبل. كان ذلك يجرى دائما بالليل. كنا نرى القناديل وكنت أعرف أن والدى على رأس الموكب، فارسا عظيما، وكان الجميع ينتظرون فى الساحة تحت فى الأسفل أو فوق الجسر. كان موكب الخيل يدخل الغابة، فلا نرى القناديل، بل نسمع الجلاجل فقط، ثم تظهر الخيول فوق الجسر، بكل أصوات

الأجـراس وبـالـقـنـاديل، وهـو عـلـى رأس الموكب كـمــن يـرى نـفـسـه ملكا...

ـ يبدو لى أننى أتذكر ـ قلت أنا، وفى الحقيقة أعتقد أننى على الأقل حلمت بمثل هذه الأشياء، رنين جلاجل خيول ونجمة كبيرة فى واجـهـة الجـبـل، فـى قـلـب الـلـيـل، ولـكـن أمـى قـالـت: ـ مـهـرج! لم يكن لديك إلا ثلاث سنوات فى المرة الوحيدة التى رأيت فيها الموكب.

ونظرت أنا من جديد إلى صقلية تلك التى كانت بالخارج، ثم إلى أمى المتدثرة كلها فى الغطاء الأحمر، من هامتها فاتحة اللون حتى قدميها، ورأيت أنها تلبس حذاء رجاليا فى قدميها، حذاء قديم من أحذية أبى، حذاء عامل فى السكك الحديدية، حذاء عال وربما به مسامير، كما كانت عادتها دائما أن تلبس وهى فى البيت، على ما أذكر، حتى تكون أكثر راحة، أو تحس بطريقة ما أنها مغروسة فى الرجل، أو أنها شىء من الرجل، ضلع الرجل.

ـ ١٤ ـ

عدنا إلى المائدة ولأننى كنت أنظر إليها دون أن أتكلم قالت لى:

ـ ولكن لماذا تنظر إلى؟

وقلت لها: ألا أستطيع أن أنظر إليك؟

ـ حسنا! ـ قالت أمى، ما دمت تريد أن تنظر لى فلتنظر، ولكن أكمل طعامك... ـ وقطعت أنا قطعة أخرى من الخبز، الذى كان أبيض وقشرته جامدة كأنه مخبوز بشكل سىء وقلت: ولكن ما الفكرة التى خطرت لوالدى حتى يذهب مع امرأة أخرى، فى شيخوخته؟

بدا أن أمى اندهشت، وشعرت بالإهانة، وأن لديها ما تعارض به كل كلمة قلتها. وما الذى أدراك أنت؟ ـ صاحت.

ـ كتب لى هو بهذا ـ قلت أنا.

ـ نذل! ـ صرخت أمى ـ هل كتب لك أنه وجد امرأة أخرى، وأنه تركنى، وذهب معها؟

وقلت لها نعم، وإن هذا ما فهمته، وصرخت هى:

ـ يا له من نذل!

وقلت أنا: لماذا؟ أليس صحيحا؟

وقالت أمى: كيف يكون هذا صحيحا؟ ألم تعد تذكر كم كان جبانا؟

ـ جبان؟ ـ قلت أنا.

ـ أى نعم ـ صاحت أمى ـ عندما كان يضربنى ثم يعود يبكى ويطلب منى الصفح...

وأخذنى نوع من التعجب. ـ أوه! ـ قلت. من الواضح أنه كان يتأسف.

ـ كان يتأسف! ـ صرخت أمى، كأننى لم يكن باستطاعتى أن أدافع عن نفسى وأرد عليه أنا الأخرى... ربما كان هذا هو ما يأسف له.

ضحكت أنا: هاهاها! وتذكرتهما: أبى نحيفا كصبى، بعينين زرقاوين، وهى بدينة، قوية، بحذاء كبير، يمسكان بعضهما ببعض ويتحولان إلى وحشين ويتضاربان ويضربان كل شىء، فيوجهان ركلات إلى المقاعد ولكمات إلى الزجاج وضربات بالعصا على المناضد، ونحن نضحك ونصفق: هاهاها! ـ ضحكت. وقالت أمى:

– هل تفهم أى نذل كان؟ حتى عندما كنت ألد كان هو يبكى. كان الألم عندى أنا ولم أكن أبكى، وإنما كان هو الذى يبكى. كنت أتمنى أن أرى والدى بدلا منه!

ـ أتصور أن رؤيتك تتألمين كانت تحزنه ـ قلت أنا.

ـ كانت تحزنه؟ ـ صاحت أمي. لماذا كانت تحزنه؟ لم أكن على وشك الموت. كان من الأفضل أن يساعدنى بدلا من أن يبكى...

وقلت أنا: ماذا كان بوسعه أن يفعل؟

وقالت أمي: كيف؟ ماذا كان بوسعه أن يفعل؟ ألا تفعل أنت شيئا عندما تلد زوجتك؟

وقلت أنا: ـ حسنا، أمسك بها...

ـ هل رأيت أن هناك ما تفعله؟ - قالت أمى. ولكنه لم يكن حتى يمسك بى ... كنا وحدنا وكان هناك الكثير الذى ينبغى عمله، تحضير الماء الساخن، ولكنه لم يكن يعرف غير البكاء... أو كان يهرع إلى البيت المجاور حتى يستدعى النساء من هناك... كان هذا يعجبه، أن يكون فى بيتنا نساء أخريات. ولكنهن لم يكن يأتين على الفور أبدا، وكنت أنا أحتاج إلى العون، وكنت أصرخ فيه أن يساعدنى، أن يمسك بى، أن يسندنى لأمشى، وكان هو يبكى. لم يكن يريد أن يرى...

ـ آه! ـ تعجبت أنا. لم يكن يريد أن يرى؟

نظرت لى أمى بعين قاربت الحول. لا، لم يكن يريد أن يرى ـ قالت. ثم أردفت: ـ أعتقد أنكم كنتم ترون أكثر مما كان يرى هو. كنتم تخرجون...

وقاطعتها أنا: ـ هل كنا نرى نحن أكثر مما كان يرى هو؟

وقالت أمى: ـ نعم، أنتم أيضا كنتم تريدون أن تروا... كنتم تخرجون إلى الطرقة أمام غرفتكم وتجلسون حيث كان يجلس هو، ولكنه لم يكن يرفع عينيه، أما أنتم فكنتم تفتحون عيونكم على

اتساعها. كنتم تشاهدونه وهو يبكى، وأنا أحاول أن أمشى مستندة على قطع الأثاث، وعندئذ كنت أصرخ فيه أن يخرجكم خارجا، ولكن هذا أيضا لم يكن يفلح فى أن يفعله... كنت أتمنى أن أرى أبى فى مكانه.

- أبوك؟ - قلت أنا.

- مؤكد! - صاحت أمى. كان رجلا عظيما، فارسا عظيما، وفلاحا عظيما يستطيع أن يقلب الأرض بفأسه ثمانى عشرة ساعة فى اليوم، وكان شجاعا، وكان يفعل كل شىء عندما تكون أمى فى حالة وضع... ولهذا كنت أتمنى أن أراه بدلا منه. كنت أطلب منه أن يخرجكم بعيدا، وهو لا شىء، لم يكن يفهم، لم يكن يرفع عينيه، كان يخاف من أن ينظر. كنت أدعوه جبانا، وأطلب منه أن يساعدنى، وأقول له أن يمسك بى لأننى كان بى ألم المخاض، فماذا كان يقول لى؟ كان يقول لى: انتظرى حتى يصلن.

- ومن اللاتى كان يجب أن يصلن؟

وقالت أمى: كان يتحدث عن النساء التى كان قد ذهب لاستدعائهن... ولكن لم تكن النساء تصلن دائما فى الوقت المناسب، وأنا ذات مرة أحسست بخروج رأس الطفل، وكان ثالث أخ لكم، وألقيت بنفسى على الفراش وقلت له: أسرع فقد نزل!

- وكنا نحن هناك ننظر؟ - قلت أنا.

وقالت أمى: طبعا... لم يخرجكم هو. كنتم أنتم صغارا معى، أنت وفليتشه فقط، كان عمرك أنت سنتين ونصف السنة، وفليتشه سنة أو أكثر قليلا، وكان الطفل هو ثالثكم... كنت أرى رأسه كلها خارجة...

ـ وكنا نحن هناك ننظر؟ ـ قلت أنا.

وقالت أمى: ـ نعم نعم! الطفل نفسه كان هناك ينظر، برأسه كلها وعيناه مفتوحتان، كان طفلا جميلا، وأنا كنت أصرخ فى والدك أن يسرع بسحبه. هل تعرف ماذا فعل هو؟ رفع ذراعيه إلى السماء وراح يدعو الله كأنه يمثل مسرحياته المأساوية...

- أوه! قلت أنا.

وقالت أمى: نعم هذا ما كان يفعله... والطفل كان ينظر لى، ويزرق وجهه، كان طفلا جميلا، وأنا لم أكن أريد أن يظل مختنقا...

ـ افترض أنه قد وصلت إحداهن فى تلك اللحظة ـ قلت أنا.

وقالت أمى: كيف! كانت الساعة الثانية ليلا ولم يصل أحد... ولكن تناولت زجاجة الماء التى كانت موجودة فوق الكومودينو بعد أن غلبنى غضب شديد ورميتها على رأس أبيك...

ـ هل أصبته؟ ـ قلت أنا.

وقالت أمى: طبعا، فأنا ممتازة فى التصويب! أصبته فاقتنع عندئذ بأن يساعدنى. وساعدنى، وسحب الطفل إلى الخارج سليما معافى وكأنه رجل آخر وليس هو، ولكن بالطبع كان علىّ أن أدفع أنا أكثر مما يسحب هو، كان وجهه متدفقا بالدم والعرق...

ـ ها قد رأيت أنه لم يكن نذلا؟ ـ قلت أنا. لم تكن تنقصه الشجاعة. وإنما كان ما هو أكثر وولى عنه مع خروج الدم.

ـ ما هو أكثر؟ ـ تعجبت أمى، وكانت تنظر داخل الصحن الذى أصبح فارغا. ماذا تريد أن يكون لديه؟ لم يكن رجلا مثل والدى!

ثم نهضت عن المائدة، وذهبت إلى حجرة مظلمة خلف المطبخ، ربما كانت خزانة تحت السقف، وكان من العجيب أنها كانت تمشى بخفة فى حذائها الضخم.

ـ ١٥ ـ

ـ إلى أين تذهبين؟ صحت وراءها.

أجابني صوتها مخنوقا، كأنه تحت غمامة من تراب. أحضر شمامة! وأنا كنت متأكدا أن الحجرة التي هناك كانت حجرة دون نافذة بسقف منخفض.

انتظرت، حتى لم يعد في الأطباق شيء من الرنجة، ولا رائحة الرنجة في المطبخ. وعادت أمي، وهي تحمل في يدها شمامة طويلة. ـ أرأيت يا جميل؟ ـ قالت. شمامة في الشتاء!

كانت تبتسم، وكانت تجليا، في حد ذاتها وفي ذكراها، واقع مزدوج، والشمامة في يدها، كما لو أنها هناك، أيام الطفولة، في بيت السكة الحديدية.

ـ كان لدينا أيضا شمام في الشتاء، ذ قلت أنا.

وقالت أمي: ـ نعم. كنت أحفظه بين القش في حظيرة الدواجن. أما الآن فإنني أحفظه هنا بالعلية. عندي منها عشر تقريبا.

ـ هل كنا نحفظه في حظيرة الدواجن؟ قلت أنا. لقد كان مكان حفظه لغزا لم ننجح أبدا في الكشف عنه! كان يبدو أنك تحفظينه

بداخلك. ومن آن لآخر ، يوم أحد مثلا، تخرجين منه واحدة. كنت تنصرفين كما فعلت الآن وتعودين بشمامة... كان لغزا...

وقالت أمى: أستطيع أن أتخيل أنكم كنتم تفتشون فى كل مكان.

وقلت أنا: بكل تأكيد! لو كان فى الحظيرة لكنا وجدناه.

وقالت أمى: ومع ذلك كان هناك بالفعل. ولكن فى حفرة فى الأرض يغطيها القش.

- آه، هكذا! قلت أنا. ونحن كنا نظن أنك تخبئينه بداخلك، بطريقة أو بأخرى.

ابتسمت أمى.

- هذا هو السبب فى أنكم كنتم تدعوننى ماما شمامة؟ - قالت.

وقلت أنا: هل كنا ندعوك ماما شمامة؟

وقالت أمى: أو ربما ماما الشمام .. ألا تذكر؟

- ماما الشمام! تعجبت أنا.

وضعت الشمامة على المائدة وتدحرجت ببطء ناحيتى، مرة، مرتان، خضراء فى قشرتها القوية المرصعة بخيوط رفيعة من لون الذهب. انحنيت أتشممها.

- إنه هو - قلت.

وكانت رائحة عميقة ليست رائحتها وحدها، كانت رائحة قديمة مثل نبيذ شتاء العزلة فى الجبال، أمام خط العزلة، وفى قاعة الطعام، الصغيرة، ذات السقف المنخفض، فى بيت السكة الحديدية. نظرت حولى.

- أما توجد هناك قطعة أثاث من أثاثنا هنا؟ - قلت.

وقالت أمى: - ولا قطعة. تبقت لنا هنا من أدوات الأكل وبعض حاجيات المطبخ.. والأغطية، والبياضات. لقد بعنا الأثاث قبل أن نعود إلى هنا...

- ولكن كيف قررتم أن تعودوا إلى هنا؟ - قلت أنا.

وقالت أمى: - هذا ما قررته أنا. هذا بيت أبى ولن ندفع فيه أجرة. بناه هو طوبة فوق طوبة أيام الأحد.. أين كنت تريدنا أن نذهب؟

وقلت أنا: - لا أعرف.. ولكن من المؤكد أن المكان هنا بعيد تماما عن السكة الحديدية! كيف تستطيعين الحياة دون مشاهدة خط السكة؟

وقالت أمى: وما فائدة خط السكة؟

وقلت أنا: - كنت أقول... دون أن تسمعى قطارا يمر!

وقالت أمى: - وما فائدة سماع قطار يمر؟

وقلت أنا: - كنت أظن أن هذا يهمك... كنت تخرجين لتقفى أمام الحاجز وفى يدك راية عندما كان يمر.

- نعم، إذا لم أرسل أحدا منكم، - قالت أمى.

وتعجبت أنا: آه! هل كنت ترسلين واحدا منا أحيانا؟

ولكن لم تكن إجابتها تهمنى. استطعت أن أتذكر نفسى والقطار فى علاقة خاصة كأنها حوار، كأننى تحدثت إليه، ومرت لحظة شعرت فيها كأننى أحاول أن أتذكر الأشياء التى قالها لى، كما لو

أننى أفكر فى الحياة بالطريقة التى تعلمتها، فى مثل هذه الحوارات، منه.

قلت: كان هناك مكان نجلس فيه بالقرب من المحطة. سيراديفالكو على ما أظن... لم نكن نراها ولكننا كنا نستطيع أن نسمع عربات البضائع وهى تتناطح واحدة مع الأخرى أثناء المناورة...

أخذت أتذكر الشتاء، والعزلة الكبيرة بالريف الواسع، الخالى من الشجر ومن الأوراق والأرض التى تفوح رائحتها، شتوية مثل شمامة، وذلك الضجيج.

- كنت أحب أن أسمع هذا الضجيج! - قلت.

- اقطع الشمامة! ـ صاحت أمى.

أجريت حزا على القشرة المتماسكة وسرعان ما غرقت السكين فيها. وفى تلك الأثناء كانت أمى قد أحضرت نبيذا وأكوابا. كان النبيذ شيئا متواضعا ولكن الشمام كان جاهزا وسط المائدة فشربنا عطر شمام شتوى.

-١٦-

ثم قلت: - ولكن ماذا بعد؟

- ماذا بعد؟ - سألت أمى.

- نعم، وماذا بعد؟ - قلت أنا - ما الذى حدث مع أبى؟

مرة أخرى بدا أن أمى مستاءة.

- لماذا تتحدث عنه؟ - غمغمت. - بالنسبة لى يستوى الأمر، به وبدونه... وإذا كان الأمر بالنسبة له يستوى بدونى فلا يهمنى شىء.

- صحيح إذن أنه مضى مع واحدة أخرى؟ - قلت أنا.

وقالت أمى: - مضى؟ هراء، مضى. أنا التى طردته. هذا بيتى، هنا.

وقلت أنا: آه يا سيدتى! هل أصابك الملل فطردته؟

وقالت أمى: حسنا. لقد تحملته سنين طوالاً، والآن طفح الكيل، لم أكن أستطيع أن أتحمل رؤيته وهو ينساق للعشق فى مثل سنه...

- كيف ينساق للعشق؟ - قلت أنا.

- وقالت أمى: إنه دائما هكذا مع النساء. كان دائما فى حاجة

لنساء أخريات فى البيت ويهوى أن يكون ديك الدجاجات... هل تعرف أنه كان يكتب الشعر؟ كان يكتب القصائد فيهن...

- ولكن ليس فى هذا ما يشين، قلت أنا.

وقالت أمى: - لا يشين؟ وهن اللاتى ينظرن لى نظرات الازدراء وهن يسمعن من يدعوهن ملكات فى تلك القصائد، وليس فى هذا ما يشين؟

- هل كان يسميهن ملكات؟ قلت أنا.

وقالت أمى: نعم. ملكات نحل! زوجات قذرات لعمال السكة الحديدية، ومعلمات، وزوجات نظار المحطات... ملكات نحل!

وقلت أنا: ولكن كيف كن يعرفن أن هذه القصائد مكتوبة فيهن؟

وقالت أمى: حسنا! عندما تراه الواحدة لطيفا معها، وفى الحفلات يرفع كأسه نخب جميلة الجميلات وهو ينظر إليها، ثم يقرأ هذه القصائد وهو يفرد ذراعيه نحوها، فماذا يلزمها أكثر حتى تعرف؟

ضحكت أنا ـ آه، تلك الحفلات! تلك الاجتماعات!

- كان مجنونا كبيرا، ـ قالت أمى. لم يكن يستطيع أن يعيش دون ضجة... كل ستة أيام أو سبعة يدبر شيئا ما. يدعو عمال السكة الحديد على الخط كله مع زوجاتهم وبناتهم، ويقوم بدور ديك البرابر بينهن. مرت فترات كانت هناك حفلات واجتماعات كل يوم، عندنا أو عند غيرنا... حفل راقص، لعب بالورق، تمثيل... وهو وسط الحفل وعيناه تلمعان...

استطعت أن أتذكر أبى بالعينين الزرقاوين تلمعان، فى وسط ومركز طفولتى ووسط ومركز صقلية، فى عزلة الجبال، وتذكرت أمى أيضا، غير التعيسة حقا، وهى تقوم بدور ربة البيت، تحمل النبيذ للجميع متألقة وهى تضحك، ولم تكن أبدا تعيسة مع زوج مثل ديك الحظيرة ذاك.

- كان فى هذا عظيما - واصلت أمى. لم يكن يتعب من الرقص قط، ولم تكن تفوته لفة واحدة. تنتهى الأسطوانة فيهرع لتغييرها، ويعود لكى يتناول يد امرأة ويراقصها. وكان يعرف كيف يسيطر على الجميع بعبارة مضحكة فى كل ما يقوله من كلام... وكان يجيد عزف الأكورديون، ومزمار القربة أيضا. وكان أمهر عازف مزمار قرب فى الجبال كلها وكان له صوت قوى يملأ الوادى كله. آه! كان رجلا عظيما، عظمة المحارب القديم... وكان واضحا أنه كان يرى من نفسه ملكا فوق حصانه. وعندما كان موكب الخيل يظهر فوق الجسر، بالقناديل والأجراس، وهو الذى يرى نفسه ملكا على رأس الموكب، كنا نهتف يعيش.. يعيش أبى، هكذا كنا نصيح!

- ولكن عمن تتكلمين؟ - سألت أنا.

- أتكلم عن أبى، عن جدك - قالت أمى - عمن كنت تظن أننى أتكلم؟

وقلت أنا: هل كنت تتحدثين عن جدى؟ هل كان جدى هو الذى يشغل الجرامفون؟

وقالت أمى: أما هذا فلا كان هذا أبوك. كان يشغل الجرامفون ويغير الأسطوانات. كان يجرى ويغير الأسطوانات طوال الوقت.

وكان يرقص طوال الوقت. كان راقصا عظيما، وكان مغازلا كبيرا... وعندما كان يريد منى مراقصته ويدور بى كنت أشعر أننى عدت طفلة.

- كنت تحسين بأنك طفلة مع أبى؟ - قلت أنا.

وقالت أمى: - لا لا! مع أبى أنا، جدك... كان طويل القامة، أبيا، وكانت له لحية شقراء وبيضاء!

وقلت أنا: إذن فقد كان الجد هو الذى يرقص.

وقالت أمى: أبوك أيضا كان يرقص بالجرامفون وكل تلك النساء اللائى كان يحضرهن لى بالبيت.. كان يرقص أكثر من اللازم... كان يود لو رقص كل مساء. وعندما كنت لا أريد أنا أن أذهب إلى حفل فى بيت من بيوت السكة الحديدية البعيدة، كان ينظر لى كأننى اقتطعت من حياته سنة. ولكننا كنا نحب دائما أن نذهب إلى الحفلات التى يذهب إليها هو...

- هو من؟ - قلت أنا. أبى أم جدى؟

وقالت أمى: جدك، جدك...

- ١٧ -

تكلمت أمى وتكلمت، بعض كلامها عن أبى والبعض الآخر عن جدى، أو عن آخرين لا أعرفهم، فوجدت نفسى أتصوره مثل اللومباردى الكبير.

لم أكن أتذكر شيئا عن جدى، لا أذكر سوى يده التى كانت تمسك بى وأنا لا زلت طفلا فى الثالثة، أو فى الخامسة من عمرى، كان يذهب بى عبر شوارع أو مدارج ذلك الموضع الذى كان له من الأرض. وكان بإمكانى أن أتخيله رجلا من صنف اللومباردى الكبير، أقصد ذلك الرجل الكبير كثيف الشعر ذا اللحية البيضاء الصغيرة، والذى قابلته فى القطار، بما لديه من حصان وبنات جميلات وواجبات أخرى.

- أتصور أنه كان لومبارديا كبيرا - قلت.

وكنا قد انتهينا من أكل الشمام أيضا، نهضت أمى لتجمع الصحون. ماذا يعنى لومباردى كبير؟ - قالت.

ورفعت كتفى فى تردد. لم أكن أعرف بماذا أجيب فى الحقيقة وقلت: إنه رجل...

- رجل؟ - قالت أمى.

وقلت أنا: رجل طويل القامة وكبير... ألم يكن جدى طويلا؟

وقالت أمى: بلى، كان طويلا. وهل يسمى الرجل الطويل باللومباردى الكبير؟

وقلت أنا: فى الحقيقة لا. ليس بناء على طول قامته..

وقالت أمى: لماذا إذاً تعتقد أن جدك كان لومبارديا كبيرا؟

وقلت أنا: لأنه كان كذلك! ألم يكن جدى أشقر أزرق العينين؟

وقالت أمى: هل هكذا يكون اللومباردى الكبير؟ أى رجل أشقر وعيناه زرقاوان؟ إن من السهل أن يكون المرء لومبارديا كبيرا!

- حسنا، قلت أنا. ربما كان من السهل، وربما لا يكون...

وقفت أمى بلا حراك أمام المائدة وعقفت ذراعيها تحت ثدييها العتيقين، وكانت تنظر لى بعين حولاء قليلا، وهى ملفوفة فى غطائها الأحمر.

- من السهل أن يكون هناك إنسان له شعر أصفر وعينان زرقاوان - قالت.

- أما هذا فنعم - قلت أنا. ولكن اللومباردى الكبير قد لا يكون أيضا أشقر.

فكرت فى والدى بعينيه الزرقاوين والذى لم يكن أشقر، وكيف أننى كنت أعتبره هو الآخر نوعا من اللومباردى الكبير، وهو يلعب ماكبث، وفى جميع المآسى التى لعبها على طاولات السكك

الحديدية أمام العاملين فى السكك الحديدية وعمالها، قلت: يمكن أن يكون بعينين زرقاوين وحسب.

- وماذا يعنى هذا؟ - قالت أمى.

وفكرت أنا كيف كان اللومباردى الكبير فى الحقيقة، رجل القطار الذى تحدث عن الواجبات الأخرى، وبدا لى فيما تبقى عنه فى ذاكرتى أن عينيه لم يكونا زرقاوين، وأنه ربما لم يكن إلا رجلا بشعر كثيف.

- حسنا - قلت. إن أى لومباردى كبير يكون كثيف الشعر. هل كان جدى كثيف الشعر؟

- كثيف الشعر؟ - قالت أمى. لا، لم يكن لديه شعر كثير. كانت له لحية كثيفة، شقراء وبيضاء... ولكن كان شعره خفيفا فى وسط رأسه... لم يكن لومبارديا كبيرا!

- ولكنه كان كذلك - قلت أنا. كان لومبارديا كبيرا رغم هذا.

وقالت أمى: كيف يمكن أن يكون كذلك إذا كنت تقول إن اللومباردى الكبير يجب أن يكون كثيف الشعر؟ إنه لم يكن لديه شعر كثير...

وقلت أنا: وفيم يهم الشعر؟ إننى متأكد أن جدى كان لومبارديا كبيرا... لابد أنه ولد فى أرض لومباردية.

- فى أرض لومباردية؟ - تعجبت أمى. ما هى الأرض اللومباردية؟

وقلت أنا: الأرض اللومباردية مكان مثل نيقوسيا. هل تعرفين شيئا عن نيقوسيا؟ ...

وقالت أمى: سمعت عنها. إنه البلد الذى يجهزون فيه الخبز بالجوز من فوقه.. لم يكن أبى من نيقوسيا.

- هناك أماكن أخرى كثيرة لومباردية - قلت أنا. هناك سبرلينجا وتورينا... جميع الأماكن فى وادى ديمونه هى أماكن لومباردية.

وقالت أمى: ولكنه لم يكن من وادى ديمونه. لم يكن لومبارديا كبيرا!

وقلت أنا: - حتى خارج وادى ديمونه توجد أماكن لومباردية. أيدونه ليست فى وادى ديمونه وهى لومباردية.

وقالت أمى: هل أيدونه أرض لومباردية؟ كان عندى زير من أيدونه ذات يوم. ولكنه لم يكن من أيدونه.

- من أين كان إذاً؟ ـ سألت أنا. أعتقد أنه كان من وادى أميرينا... من تلك الأنحاء... هناك مكان لومباردى فى وادى أرميرينا أيضا.

- كان من بياتسا - قالت أمى. ولد فى بياتسا ثم نزح إلى هنا. هل بياتسا أميرينا أرض لومباردية؟

ظللت صامتا لبرهة، فكرت، ثم قلت: لا، لا أعتقد أن بياتسا أرض لومباردية.

وانتصرت أمى. هل رأيت أنه لم يكن لومبارديا كبيرا؟ - قالت.

- ولكننى متأكد أنه كان كذلك! قلت أنا بإصرار. من غير المعقول ألا يكون كذلك..

وقالت أمى: ولكنها ليست أرضا لومباردية!

وقلت أنا: وما أهمية المكان؟ حتى ولو كان مولودا فى الصين فإنه لومباردى كبير....

عندئذ ضحكت أمى. أنت عنيد! قالت. ـ لماذا تصر على أنه لومباردى كبير؟

وضحكت أنا أيضا للحظة. ثم قلت: بدا لى وأنت تتكلمين عنه أنه يجب أن يكون كذلك. يبدو أنه كان يفكر فى واجبات أخرى..

قلت هذا بجدية كبيرة، بحنين إلى اللومباردى الكبير الذى عرفته فى القطار، وإلى رجال ورجال مشابهين له، وإلى أبى فى ماكبث، وإلى جدى، وإلى الإنسان على مثل صورته. يبدو أنه كان يفكر فى واجبات أخرى - قلت.

- واجبات أخرى؟ - قالت أمى.

وقلت أنا: ألم يكن يقول إن واجباتنا اليوم أصبحت قديمة أكثر من اللازم؟ وأنها فسدت وماتت ولم يعد أداؤها يرضى؟

حارت أمى ـ لا أدرى. لا أعتقد - قالت.

وقلت أنا: - ألم يكن يقول إننا نحتاج إلى واجبات أخرى، غير الواجبات المعتادة؟... ألم يكن يقول هذا؟

- لا أعرف - قالت أمى ـ لا أعرف. لم أسمعه يقول هذا...

حينئذ عاد يبدو لى من جديد عدم أهمية أن أكون هناك، عند أمى، فى رحلتى، بدلا من أن أكون فى حياتى اليومية المعتادة، ومع هذا فالحنين إلى اللومباردى الكبير جعلنى أسأل: هل كان راضيا عن نفسه؟ هل كان جدى راضيا عن نفسه وعن العالم من حوله؟

نظرت أمى لى برهة وهى حائرة، وكانت على وشك أن تقول شيئا . ولكنها أقلعت عن التفكير وقالت: لا، فى حقيقة الأمر لم يكن راضيا.

- آه، لم يكن راضيا؟ - قلت أنا.

وقالت أمى: كلا، لم يكن راضيا عن العالم.

- ولكنه كان راضيا عن نفسه؟ - قلت أنا. لم يكن راضيا عن العالم ولكنه كان عن نفسه راضيا؟

وقالت أمى: نعم، أعتقد أنه كان راضيا عن نفسه...

- لم يكن يفكر فى واجبات أخرى؟ قلت أنا. كان راضيا عن نفسه؟

وقالت أمى: - ولم لا يكون كذلك؟ كان يحس بأنه ملك على حصانه فى موكب الخيول... وكنا عنده نحن: ثلاث فتيات جميلات! لماذا لابد لا يكون راضيا عن نفسه؟

وقلت أنا: - حسنا. ربما لا تعرفين أنت ما إذا كان راضيا عن نفسه أو لم يكن....

-١٨-

ثم راحت أمى تنظف الصحون. لم يكن هناك ماء جار وكانت هى تغسلها فى حوض فخارى ملىء بالماء الساخن، وسرعان ما أطلقت نغم صفيرها وهى تغسلها.

- ألا تساعدنى؟ - قالت، عندما أخرجت الصحن الأول من الماء الساخن. نهضت أنا وتأهبت لمساعدتها فقامت هى بدعك الصحن بشىء من الرماد وناولتنى إياه وأشارت لى نحو دلو آخر به ماء بارد، وطلبت منى أن أشطف الصحن فى الدلو ثم أجففه. ثم واصلت بهذه الطريقة مع الصحون الأخرى وأدوات المائدة، كانت هى تصفر وتغنى وأنا كنت أنظر إليها.

كانت تغنى بصوت هامس ألحانا قديمة بلا كلمات، نصفها مواء ونصفها صفير، وتموج من آن لآخر صوتها. كانت امرأة مضحكة بأعوامها الخمسين أو أقل قليلا، ووجهها الذى لم يشخ بعد، وإنما يبسه الزمن، لم تصبها الشيخوخة، بل كانت لا تزال شابة، شعرها كستنائى ضارب إلى الصفرة، وغطاء أحمر على كتفيها، وحذاء أبى الضخم فى قدميها. رأيت يديها، اللتين كانتا كبيرتين، منهكتين،

معروقتين، مختلفتين تمام الاختلاف عن الوجه، حيث أوشكتا أن يكونا يدى رجل يقطع الأشجار ويحرث الأرض بينما كان وجهها وجه سرية على نحو ما. "نسوتنا هؤلاء!" فكرت، ولم أكن أقصد الصقليات وإنما النساء على نحو عام، دون نعومة فى الأيادى آناء الليل، وربما لا يسعدن بذلك أحيانا، أو لهذا يشعرن بالغيرة والضراوة، لأنه ليس لديهن أيادى السرايا، مثلما لديهن من قلب ووجه، ولا يستطعن الحفاظ بأياديهن على ارتباط رجالهن. فكرت فى أبى وفى نفسى، فى الرجال جميعا، واحتياجنا إلى أيد رطبة تربت علينا، وأيقنت أننى فهمت شيئا ما عن استقرارنا المزعزع مع النساء، وكيف أن كثرة منا تهرب منهن، فكرت فى نسائنا بأيديهن الخشنة ـ التى تكاد تكون ذكورية ـ الجافة فى الليل، وكيف أننا كنا نسقط فى العبودية عندما نجد امرأة، نراها حقا امرأة، ونسميها بالملكة وبأن لها لمسة سرية. فكرت فى أننا كنا نحب فكرة أهل الترف، سواء كانوا من المواطنين أو العسكريين، من كل الرتب ومن الأعراق، والأمراء بل والملوك فى الحكايات أيضا، بسبب فكرة المرأة التى تستطيع أن تربى يديها على الحنان. كان يكفى أن نعرف بوجودهن أو نستطيع أن نعى وجود هؤلاء النسوة وأن نراهن بعيدا عن خيولهن ونياشينهن وخصيانهن، وفكرت فى أن هذا هو السبب فى أننا نحب أجواء الحفلات، والقصور المنيفة، والرجال أيضا، والأبواق والنياشين، وكل ما يدخل اللعبة ويصرف أنظارنا عن نسائنا وفتياتنا للبحث عن أخريات، أنا وأبى وأى رجل آخر، للبحث عن شىء آخر فى نساء أخريات دون أن نعى بأننا فى الحقيقة نبحث عن لمسة يد ناعمة تحنو علينا. فكرت فى هذا وفكرت فى

أننا أنذال وأنا أنظر إلى يدى أمى الشائهتين، وإلى قدمى أمى الشائهتين أيضا وهما فى حذاء رجالى قديم، وأنه كان يجب تجاهلها مثل أجزاء فيها من طبيعة أخرى لا يجب تحديدها. كانت أمى تغنى، كانت طائرا يغرد، تطلق ألحانا من المواء والصفير والرعشات الصوتية من آن لآخر، ولا أهمية ليديها، ولا أهمية لقدميها، ولا حتى أعوامها كانت تهم فى شىء، المهم فقط هو أن تغرد، أن تكون طيرا، الأم طير إذ تحلق فى الهواء، والأم نور، ببيضها، تمنح النور. حسنا - قلت، أتخيل أنك تقضين الوقت هكذا عندما تكونين وحيدة.

- هكذا؟ - قالت أمى.

- نعم، - قلت أنا. ـ بالغناء.

رفعت أمى كتفيها تعبيرا عن أنها ربما لم تنتبه إلى أنها كانت تغنى. وأردفت أنا: - ألا يهمك أن وجدتك وحيدة؟

نظرت عندئذ لى بعين زائغة زوغان لحظات الحيرة ثم حكت جبينها وقالت: - إن كنت تعتقد أننى يجب أن أشعر بالحرمان من صحبة والدك فأنت واهم... ما الذى تتصوره بالضبط؟

- لماذا؟ - قلت أنا. ألم تكن صحبته طيبة؟ أتصور أنه كان يساعدك أيضا فى شغل البيت.

وقالت أمى: - هذا لا يعنى أننى يجب أن أشعر أننى وحيدة بدونه...

وقلت أنا: - ولكنه كان رجلا مهذبا!

وقالت أمى: - أوه! لا يلزم أن نحتفظ فى البيت برجل لطيف! بل كانت مصيبتى أنه كان رجلا لطيفا...

وقلت أنا: لم أفهم، هل تشرحين أكثر؟

وقالت أمى: انظر، لم يكن جدك رجلا لطيفا.. لم يكن ينادى النساء بالملكات، ولم يكن يكتب فيهن قصائد شعر...

- ربما لم يكنَّ يعجبنه - قلت أنا.

- كيف؟ بل كن يعجبنه أكثر عشر مرات من إعجاب أبيك بهن... ولكنه لم يكن يحتاج إلى أن يدعوهن ملكات. عندما كانت امرأة تعجبه كان يأخذها إلى الوادى الضيق. وما تزال هنا فى البلدة الكثيرات ممن يذكرنه حتى الآن. وكثيرات غيرهن أيضا فى بياتسا...

- وأنت تشكين من أبى؟ - قلت أنا. لقد تصورت أنك بطبعك هذا ربما تكونين فى حال أسوأ إذا أصبحت زوجة للجد مثلا.

- كيف؟ - تعجبت أمى. أسوأ؟

- حسنا، - قلت أنا. ـ كان جدى يصحبهن إلى الوادى الضيق وكان أبى يكتب فيهن قصائد شعر. أعتقد أن مثل هذا الزوغان فى الوادى الضيق ربما كان أقسى عليك من الشعر

وقالت أمى: لا شىء من هذا على الإطلاق. كانت القصائد هى الشر كله مع أبيك... كنت أرضى لو كان اصطحبهن إلى الوادى الضيق فقط.

وقلت أنا: ماذا؟ هل كان يصطحبهن إلى الوادى ثم يكتب فيهن قصائده؟

وقالت أمى: - طبعا... وكان يسميهن ملكات، ويعاملهن معاملة الملكات. كان رجلا لطيفا. ولو كان لإحداهن اسم لطيف مثل مانون(١)، كان يجن بها، وهو شىء سخيف بالنسبة لسنه.

- ومن التى كان اسمها مانون؟

وقالت أمى: تلك كانت بهلوانة الجياد فى السيرك، هى التى طردته من أجلها... لأن اسمها كان مانون. ولكنه كان يعاملها دائما كالملكات. كان رجلا مهذبا.

مرت فترة من الصمت قبل أن أجيب، بدت فيها أمى كمن تنتظر. ولهذا قلت أنا: كان رجلا مهذبا.

وقالت أمى: كان هذا هو ما يسىء. كان من الممكن أن أكون سعيدا لو أنه اكتفى باصطحابهن فى الوادى فقط. لكنه كان يأتى ويقول لى: "عزيزتى، لو كنت صبية لكنت جديرة باسم مانون".

- وهل كان هذا سيئا؟ - قلت أنا.

وقالت أمى: - كان السيئ فى أن يعاملهن كالملكات، وليس كبقرات قذرة. وكان يقنعهن بأنهن شىء لا أعرف ما هو. كان هذا هو الشر. ولم أكن أستطيع أنا أن أنظر إليهن نظرة الازدراء.

---

(١) ربما يستعير المؤلف اسم ماتون من الرواية الفرنسية الشهيرة لأبيه بريفوست في القرن التاسع بعنوان «تاريخ فارس جريو وماتون ليسكو» والتى تحولت إلى عمل أوبرالى، ومسرحى، وسينمائي، وصار اسم Manon، نموذجا للمرأة الفاتنة بعيدةالمنال التي تستعبد الرجال بجمالها من خلال أحط الغرائز، وتمثل الصراع الذي لم يتم حله أبدًا بين الرذيلة والفضيلة، بين الأنانية والكرم. (المترجم).

- آه! - قلت أنا. لم تكونى تستطيعين النظر إليها نظرة ازدراء؟ - بينما كنت أفكر: يا لها من امرأة مضحكة!

وقالت أمى: كان هو يقنعهن بأنهن شىء ما لا أعرف ما هو، وكن ينظرن لى كما لو كن شيئا لا أدرى ما هو... كن يأتين إلى منزلى، زوجات عاملين فى السكك الحديدية، أو قرويات، وكن وقحات، ثابتات، لا يغضضن البصر، وكن ينظرن لى كأنهن شىء ما من يدرى ما هو. ولم أكن أستطيع أن أنظر إليهن من أعلى إلى أسفل!

امرأة مضحكة! واصلت التفكير.

وقالت أمى: كان هذا هو الشر! كان يجعلهن يتصورن أنهن يزدن عنى كثيرا! وكن ينظرن لى كما لو كن يزدن عنى كثيرا! لأنه كان يسميهن ملكات! لم يكن يشعرهن بأنهن بقرات قذرات. ولم أكن أنا أستطيع أن أنظر إليهن باحتقار!

هكذا كانت هى تتكلم وكنت أنا أفكر: يا لها من امرأة مضحكة! يا لها من امرأة مضحكة! وكنت فى داخلى أكاد أضحك. كنت أعرف طبيعتنا نحن الرجال، أنذال ربما كنا، أبى وأنا نفسى، ولكننا فى النهاية على حق فى تحمسنا لهن وفى إقناعهن بأنهن شىء لا أعرف ما هو. وبداخلى كنت أكاد أضحك.

ـ ١٩ ـ

كانت أمى قد أمسكت المكنسة وراحت تكنس حولها، رأيتها أما وامرأة وافرة السمات، وأنا أكاد أضحك من داخلى، فكرت فى أنه كان من الممكن أن تصبح واحدة من تلك التى تسميهن بقرات قذرات، وكان بوسعها رغم يديها الخشنتين أن تكون ملكة بالنسبة لرجال آخرين، ملكة فى الخفاء، ملكة نحل، وأما لها نزوات.

لِمَ لا؟ فكرت.

كان لديها فيض ما بداخلها من أمومة يفوق إمكانية أن تكون مجرد زوجة مسكينة فنيت وراء نزوات رجلها خلف نساء أخريات. كان بداخلها عسل قديم كثير، وهى تتحرك الآن فى هذا المطبخ الصغير، ممشوقة القامة وشعرها مائل إلى الشقرة، والغطاء الأحمر على كتفيها. كان لديها الكثير من العسل القديم بداخلها. ما كان من الممكن أن تكون قد عانت التعاسة.

وأنا أكاد أضحك بداخلى قلت:

- إنك امرأة مضحكة! كنت تريدين أن يشعرن بأنهن بقرات!

- كنت أريد هذا، قالت أمى. كنت أريد أن أضحك من هذا الشىء كله...!

- أنت امرأة مضحكة! ـ قلت أنا. هل كنت تريدين أن تضحكى من الأمر؟

وقالت أمى: - طبعا. لم يكن يهمنى منه شىء! كنت أود أن أسخر منه! ولكنه لم يكن يتعامل معهن على أنهن بقرات...

وقلت أنا: لماذا كان يجب عليه أن يفعل هذا؟ كان لديهن أزواج وأولاد أيضا مثلك...

وقالت أمى: - حسنا! لم يكن أحد يجبرهن على أن يصبحن بقرات.

وقلت أنا: - هل كان ما يفعلنه بهذه القذارة؟ ألم يكن يفعلن الشىء نفسه الذى تفعلينه معه؟ أو كن يفعلن شيئا آخر؟

- شيئا آخر؟ - تعجبت أمى.

وتوقفت عن الكنس لحظة.

- شىء آخر كيف؟ - قالت. كن يفعلن الشىء نفسه طبعا. ماذا كان بوسعهن أن يفعلن غير هذا.

- وبعد؟ - قلت أنا. كان لديهن زوج مثلك. كان لديهن أولاد مثلك. ولم يكن يفعلن شيئا أقذر مما كنت تفعلين أنت معه... فلماذا كان عليه أن يتعامل معهن على أنهن بقرات قذرة؟

وقالت أمى: ولكنه لم يكن زوجهن، وإنما كان زوجى أنا...

- وهنا كان الفارق؟ - قلت أنا. وكنت بداخلى أضحك. كنت

أراها وقد توقفت فى وسط المطبخ والمكنسة فى يدها ولا تكنس، وكنت من داخلى أضحك.

- لا أفهم كيف تفكرين ـ قلت.

وكنت بداخلى أضحك، وقد قررت أن أخاطر بتسديد الضربة.

- لا أفهم كيف تفكرين ـ قلت مرة أخرى. وقلت: ألم تكونى بقرة قذرة أنت عندما كنت تفعلين الشىء نفسه مع رجال آخرين؟

لم تخجل أمى. اشتعلت عيناها، وانغلق فمها، تجمدت، أصبحت جامدة كلها، وأطول مما كانت، وتوترت فى عسلها القديم، ولكنها لم تحمر خجلا.

وكنت أضحك بداخلى، وقلت: لأننى أتصور أنك أنت أيضا كنت تذهبين إلى الوادى... كنت مسرورا بإثارتها فى عسلها القديم وكنت أضحك بداخلى وكنت ثرثارا.

قلت: لا أظن أنك عشت دائما داخل المطبخ! ـ قلت. ربما ذهبت مع أحدهم إلى الوادى!

- أوه! ـ قالت أمى. كانت متصلبة فى وسط المطبخ، ومضطربة فى عسلها القديم، ولكنها دون حمرة الخجل، أوه! ـ قالت وهى تنظر لى من أعلى لأسفل.

وكانت أكثر من مجرد أم لى وهى تقول هذا، بل كانت أما، طائرا، ملكة نحل، ولكن العسل بداخلها كان عتيقا جدا واستقر بداخلها، وتمدد، بخبث، وكنت أنا ابنا فى التاسعة والعشرين، الثلاثين تقريبا، نصفى غريب عنها، منذ خمسة عشر عاما، فى نصف منى كنت بالنسبة لها مثل رجل مثل أى رجل آخر، وهكذا

قالت وهى تعود إلى الكنس: حسنا، أتصور أنه كان يستحق ذلك لو أننى ذهبت مع رجال آخرين مرة أو مرتين!

وفكرت وأنا أضحك بداخلى: " آه أيتها البقرة العجوز!"

وقلت: طبعا كان يستحق!

ثم سألت: مرات كثيرة؟ مع رجال كثيرين؟

- أوه! تعجبت أمى. هل تتصور أننى كنت متاحة لكل الرجال؟

وقلت أنا: أبدا! كنت فقط أريد أن أعرف هل كان هذا مع واحد أم اثنين؟

وقالت أمى: - كان مع واحد! مع واحد! لأن الثانى كان غلطة لا تحسب.

- غلطة؟ - قلت أنا كيف؟

وقالت أمى: - كان مع صديق عندما كنا فى ميسينا. بعد الزلزال... كان على أى حال شيئا مضطربا، كنت صغيرة السن، ثم طواه النسيان.

ياه! ـ قلت أنا. ومع الآخر؟

وقالت أمى: مع الآخر كانت مجرد صدفة!

- كان هو الآخر أحد أصدقائنا؟ - قلت أنا.

وقالت أمى: لا. كان شخصا لم أكن أعرفه.

- كان شخصا لم تكونى تعرفينه؟ - تعجبت أنا.

وقالت أمى: ماذا فى هذا يبعث على التعجب؟ لا تعرف كيف كانت تمضى الأمور.

وقلت أنا: أتخيل أنه اغتصبك!

وقالت أمى: اغتصبنى؟

وضحكت أنا بداخلى بسبب النبرة التى قالت بها أمى هذا، ثم سألت وأنا أتفحصها كأننى فى الطرف الآخر من الأرض، وليس فى مطبخها وليس فى صقلية، وسألتها: ولكن أين حدث هذا؟ هل حدث فى منازل السكة الحديدية؟

ـ ٢٠ ـ

- كان هذا فى أكوافيفا - قالت أمى.

بدأت حينئذ أسمعها من طرف آخر من الأرض وفكرت فى أكوافيفا البعيدة جدا فى المكان، تلك المعزولة فى ثغر الجبل. ومع ذلك قلت: ولكننا كنا جميعا كبارا فى أكوافيفا. كان ذلك بعد الحرب.

- ماذا تقصد بهذا؟ - قالت أمى. هل كان ينبغى أن أطلب منكم الإذن لأنكم كنتم كبارا؟ أنت كان لديك أحد عشر عاما. كنتم تذهبون إلى المدرسة وكنتم تذهبون إلى اللعب...

هكذا كان الحال فى حالات الوحشة تلك، فى أكوافيفا وفى سان كاتالدو وفى سيراديفالكو، الأولاد يذهبون إلى المدرسة فى قطار البضائع، أو لكى يلعبوا فى شقوق الحقول المحيطة، والرجل فى العمل مع المعزقة، والأم فى العمل مع الغسيل وغيره، وكل واحد مشغول بأموره الخاصة تحت سماء العزلة.

كانت قصة رائعة، بعيدة جدا فى المكان، وقالت أمى إنه كان صيفا رهيبا. وهذا يعنى أنه لم تكن هناك قطرة ماء واحدة فى

الجداول لمسافة مائة كيلومتر من كل ناحية وأمام الناظرين ليس هناك سوى القش المتخلف عن الحصاد من حيث تشرق الشمس إلى حيث تغرب. لم تكن هناك بيوت على مسافة عشرين أو ثلاثين كيلومترا من كل ناحية، باستثناء بيوت عمال السكك الحديدية على طول الخط، وقد سحقتها الوحدة والعزلة، ومعنى أنه كان صيفا رهيبا أنه لم يكن هناك أى ظل فى هذه الكيلومترات كلها، وأن الزيزان كانت تنفجر تحت الشمس، والقواقع الحلزونية تفرغها الشمس، وأن كل شىء فى الدنيا أصبح جزءا من للشمس. كان صيفا رهيبا ـ قالت أمى.

كانت قد انتهت من الكنس، وكانت تلف فى المطبخ لكى تضع كل شىء فى مكانه، ولم تكن تحكى، كانت تجيب على أسئلتى. هل كان صباحا أم بعد الظهيرة؟

وقالت هى: ـ أعتقد أنه كان بعد الظهيرة. لم تكن هناك دبابير أو ذباب، لم يكن هناك شىء... لابد أنه كان بعد الظهيرة.

– وأنت، ماذا كنت تفعلين؟ ـ سألت أنا.

وقالت هى: ـ كنت قد خبزت الخبز...

إذاً فقد كان هذا هو ما حدث: على مدى كيلومترات طويلة تنبعث رائحة الثعبان الميت تحت الشمس، وفجأة، وحول أحد البيوت، تفوح رائحة خبز خرج لتوه من الفرن. ـ كنت قد خبزت الخبز، – قالت أمى.

– ثم ماذا؟ – سألت أنا.

وقالت أمى: – كنت أغسل. كان لدينا حوض بالخارج، إلى جوار

البئر، ولابد أنه كان بعد الظهيرة، لأنه كان هناك ظل فى ناحية الحوض... كنت أغسل دائما بعد الظهر.

كان الوقت إذن بعد الظهيرة، وكانت هناك رائحة الخبز الذى خرج من الفرن حول البيت، وكان هناك بئر، وماء يأتى فى العربة الفنطاس بالقطار، وامرأة كانت تغسل. ولكن أمى لم تكن تحكى، أمى، كانت تجيب على أسئلتى، وأنا سألت: ماذا عنه هو؟

- كان جوالا - قالت أمى.

- جوالا؟ تعجبت أنا.

- نعم، كان أحد الذين يسافرون مشيا على الأقدام - قالت أمى.

وقلت أنا: - يسافر عبر كل هذه المئات من الكيلومترات دون قطرة ماء... دون عمار...؟

وقالت أمى: نعم. ومعه خرج صغير به غيارات ويلبس لبس الجنود ولكن بدون رتب، وعلى رأسه قبعة عمال الحصاد. وقد خلع نعليه ووضعهما على كتفه بعد أن ربطهما معا...

- هل كان قادما من بعيد؟ - قلت أنا.

وقالت أمى: - أظن هذا... روى لى أنه مر ببيترابريتسيا، ومازارينو، وبوتيرا، وتيرانوفا، وكثير من الأماكن الأخرى. كان يبدو لى أنه قادم مباشرة من حيث انتهت الحرب. حتى إنه كان يرتدى ملابس الجنود رغم أنها لم تكن بها نجوم.

- كل هذا سيرًا على قدميه؟ - قلت أنا - إلى تيرانوفا وبوتيرا وماتزارينو وبيترابرتيسيا؟...

وقالت أمى: على قدميه... كانت قد مرت عليه فى ذلك اليوم ثمان وأربعون ساعة دون أن يصادف بلدا أو نفسا حية.

- ولم يكن قد أكل لثمان وأربعين ساعة؟ - قلت أنا.

وقالت أمى: - والأكثر من هذا أن آخر مكان مر به كان مزرعة، والكلاب فى المزارع لا تسمح للجوالين بدخولها. هذا هو ما حكاه لى، وفى أثناء ذلك شرب سطلا من الماء.

توقفت، كما لو أنها لم يعد لديها ما تقوله، وسألتها أنا: - لم يكن يريد شيئا سوى الماء؟

- كان يريد أيضا أشياء أخرى لو استطاع أن يحصل عليها - قالت أمى. فى الحقيقة لم يطلب شيئا ولكننى أعطيته رغيفا من الخبز كنت قد أخرجته من الفرن قبل ما لا يزيد عن الساعة وتبلته بالزيت والملح والزعتر، وكان هو يتشمم الهواء ورائحة الخبز، وكان يقول: أحمدك يا رب!

من جديد توقفت أمى، ولم تكن تحكى، وإنما ترد على أسئلتى، وأنا سألتها عن شىء ما، لم أعد أعرف ما هو، وقالت أمى: إن ذلك الرجل كان ينظر إليها وهو يقول «أحمدك يارب» ويأكل الرغيف. وسألتها مرة أخرى عن شىء لا أتذكر الآن ما هو، وقالت أمى كيف فهمت أن الرجل كان جائعا وعطشان لشىء آخر لم يستطع الإفصاح عنه وهو يقول «أحمدك يا رب»، ولكنه أيضا كان يريد شيئا آخر لو استطاع الحصول عليه. وسألتها مرة أخرى عن شىء لا أذكر الآن ما هو، وقالت أمى كيف كانت تريد ألا يبقى الرجل جائعا عطشان بلا طائل، وكيف كانت تتمنى أن تراه مستريحا،

وكيف أنه كان يبدو لها أنه من الإنسانية والرحمة أن تريحه حتى فى جوعه وعطشه للشىء الآخر. وفكرت أنا: يا للبقرة المباركة! وقلت: وعلى أى حال فإن ذلك أيضا كان شيئا عارضا!

- لا - قالت أمى، فقد عاد الرجل فى عصارى أيام أخرى.

وقلت أنا: كان من تلك الأنحاء إذاً؟ لم يكن جوالا؟

وقالت أمى: كان جوالا. كان ذاهبا إلى باليرمو وكان قد عبر صقلية كلها.

وقلت أنا: كان ذاهبا إلى باليرمو؟ وهل ذهب إلى باليرمو؟

وقالت أمى: كان ذاهبا ولكنه لم يذهب. ذهب حتى بيفونا وهناك وجد عملا فى منجم كبريت، وأقام هناك.

- فى بيفونا؟ - قلت أنا. ولكن بيفونا بعيدة عن أكوافيفا.

وقالت أمى: هى على الجانب الآخر من الجبل. على بعد نحو خمسين كيلومترا... البلاد كلها تبعد ما يقرب من خمسين كيلومترا من أكوافيفا.

- لا - قلت أنا. كاستيلتيرمينى أقرب من خمسين كيلومترا. لماذا لم يتوقف فى كاستيلتيرمينى؟

وقالت أمى: ربما لم يكن هناك عمل فى كاستيلتيرمينى. أو ربما كان يريد أن يواصل حتى باليرمو، ووصل إلى بيفونا، وهناك غير رأيه.

- وكان يقطع خمسين كيلومترا على الأقدام لكى يزورك؟ - قلت أنا.

وقالت أمى: خمسين للمجىء وخمسين للعودة. كان جوالا... وفى اليوم السابع من تلك الظهيرة عاد للظهور.

- هل عاد أكثر من مرة؟ - قلت أنا.

وقالت أمى: مرات عديدة. كان يحمل لى هدايا صغيرة. ذات مرة أحضر لى قرصا من العسل الطازج عطر البيت كله...

- أوه! ـ تعجبت. وقلت: - ولماذا اختفى؟

- هكذا! ـ قالت أمى. وكانت على وشك أن تكمل ولكنها نظرت لى وسألتنى: أما تسألنى ما إذا كان لومبارديا كبيرا؟

- أوه! صحت أنا. لماذا؟ وهذا ما دخله؟

- أعتقد أن له دخلاً - قالت أمى ـ أعتقد أنه كانت عنده واجبات أخرى. ألا يعد لومبارديا كبيرا من يفكر فى واجبات أخرى؟
- هل كان يفكر فى واجبات أخرى؟ - تعجبت أنا. هو؟ ذلك الجوال؟

- نعم - قالت أمى. قرب حلول الشتاء كان هناك إضراب فى منجم الكبريت، وكان الفلاحون هم أيضا متمردين، وكانت القطارات تمر محملة بجنود الحرس الملكى...

وأخذت أمى تحكى، ولم أكن مضطرا لأن أوجه إليها الأسئلة أولا. عمال السكك الحديدية ما عادوا يضربون - قالت. كانت القطارات تمر محملة بجنود الحرس الملكى. ومات أكثر من مائة فى بيفونا، ليس من جنود الحرس الملكى، وإنما منهم هم...

- وهل تعتقدين أنه كان بين الأموات؟ - قلت أنا.

- أعتقد هذا - قالت أمى. ولم يحدث ذلك أما كان يظهر من جديد؟

- آه! - قلت أنا. ونظرت إلى أمى، ورأيت أنه لم يعد لديها ما تعمله فى المطبخ وأنها كانت هادئة، مطمئنة، فأخذت تفرد الفستان بيدها على ساقيها، ومن جديد قلت لنفسى: يا للبقرة المباركة!

الجزء الثالث

ـ ٢١ ـ

وبعد الظهر جاء ثغاء شاكى من الخارج، لم يتوقف، بل تصاعد وصار موسيقى: كانت موسيقى القرب.

الآن حان وقت التُساعية(*)، ـ قالت أمى. ثم أردفت: لابد أن أذهب لكى أقوم بجولتى. ثم جلست على مقعد لتغير حذاءها فنزعت ذلك الرجالى ووضعت حذاء نسائيا برقبة كان موضوعا تحت المائدة.

- جولتك؟ أية جولة؟ - قلت أنا.

- سوف آخذك معى - قالت أمى.

نهضت بالحذاء طويل الرقبة فى قدميها فزادت طولا وتماوجت خطواتها، وانتقلت إلى الغرفة لكى ترتدى ملابس الخروج، أخذت تتكلم معى من هناك وسط أنغام المزامير. قالت لى إنها كانت تعطى الحقن. وكانت ترى أنها لا يجب أن تنتظر شيئا من أبى، وأن عليها أن تكسب قوتها بعرق جبينها بهذه الطريقة. بإعطاء الحقن.

(*) صلاة مسيحية. (المترجم)

ارتدت معطفا أسود، وعلقت بذراعها حقيبة كبيرة قريبة الشبه بحقائب القابلات واقتادتنى إلى خارج المنزل حيث الشمس الباردة، واتخذت الرحلة إلى صقلية مسارا جديدا.

ـ ٢٢ ـ

مررنا من خلف المنزل إلى شارع منحدر قطعناه بين جدران البساتين الصغيرة حتى وصلنا إلى باب طرقناه. وفتح الباب.

فى الداخل كانت هناك عتمة فلم أر من عساه يكون من فتح لنا الباب. لم تكن هناك نافذة، لم يكن هناك سوى كوة أعلى مستوى الباب عليها زجاج يميل لونه إلى السواد، ولم أر شيئا، لم أر حتى أمى.

لكننى مع ذلك سمعتها تتكلم.

- معى ابنى - قالت.

ثم سألت - كيف حال زوجك؟

- آه، كالعادة يا كونشتسيونى - أجابت المرأة

وصاحت متعجبة: كم هو كبير ابنك؟!

ومن العمق جاء صوت رجل يقول:

- أنا هنا يا كونشتسيونى على الفراش.

كان صوتا خلته آتيا من تحت الأرض، وأضاف يسأل: هل هذا هو ابنك؟

- نعم، إنه سليفسترو - قالت أمى.

شعرت بالأصوات الثلاثة بعيدة عنى وهى تتحدث، كانت أصوات مخلوقات غير مرئية. مع أنها كانت تتحدث عنى.

- كبر وأصبح مثلك! - قال صوت المرأة.

كانوا يروننى ولكننى لم أكن أراهم، مثل الأرواح. ومثل الأرواح ضربت أمى الحقنة ببراعة فى الظلام وهى تتحدث عن الإبرة والمطهر.

- يجب أن تأكل - قالت. كلما أكلت أكثر كان شفاؤك أسرع . ماذا أكلت اليوم؟

- أكلت بصلة - أجاب صوت الرجل.

- كانت بصلة ممتازة - قال صوت المرأة. لقد شويتها له فى الموقد.

- حسنا - قالت أمى. يجب أن تعطيه بيضة أيضا.

- أعطيته إياها يوم الأحد - رد صوت المرأة.

وقالت أمى: - حسنا.

من العمق صاحت لى: لنذهب الآن يا سيلفسترو.

كنت أداعب الوبر الدافئ لعنزة أمامى. كنت قد تقدمت بضع خطوات على الأرضية العارية غير المستوية وأنا أفتش بيدى عن طريقى وصادفت هذا الوبر الدافئ فتوقفت أدفئ يدى فى هذا الوبر الحى.

- لنذهب الآن - قالت أمى مرة أخرى.

ولكن صوت الرجل من العمق استبقاها لحظة أخرى.

- كم عدد الحقن الأخرى التى يجب أن آخذها؟ - سأل.

- كلما أخذت أكثر شفيت بشكل أفضل - أجابت أمى.

- ولكن عندى من الحقن خمس أخرى - قال الصوت.

وقال صوت الزوجة: هل تعتقدين أنه يمكن أن يشفى بهذه الحقن الخمس الأخرى؟

- كل شىء ممكن - أجابت أمى.

انفتح الباب، وعادت أمى نفسا مرئية على عتبة الباب، وحقيبة القابلات فى ذراعها.

خرجنا وعدنا إلى السير، بين جدران البساتين، نحو بيت آخر من بيوت زبائن أمى، فدلفنا إلى شارع يمتد فى المنحدر تحت الشارع الأول. كان الجبل يكلله الجليد أمامنا خلف أراضى الوادى. ومن ناحية كانت هناك بيوت صغيرة وسط بساتينها ترتفع نحو السماء، فى مواجهة الجبال البعيدة. ومن الناحية الأخرى، فى مواجهة الشمس المشرقة رغم برودتها، كانت هناك دهاليز مساكن محفورة فى الصخر تحت البيوت الصغيرة والبساتين التى تعلوها قليلا. كانت البساتين صغيرة جدا، وتظهر بين السطح والآخر أعلى البيوت، كأنها آنية بها خضروات، وفى الشارع كانت هناك ماعز استسلمت للشمس فى خمول، وفى الهواء البارد كانت موسيقى المزمار تختلط برنين جلاجل الماعز. تلك كانت صقلية صغيرة تتزاحم فيها أشجار البشملة وقرميد غطاء الأسطح، وثقوب الصخور، والأرض السوداء، والماعز، وموسيقى المزمار التى كانت تبتعد خلفنا، وتتحول إلى سحابة، أو إلى جليد على القمة.

سألت أمى:

- ما المرض الذى يعانى منه ذلك الرجل؟

- مثل الآخرين - أجابت أمى - بعضهم مصاب بشىء من الملاريا والبعض الآخر بشىء من السل.

- ٢٣ -

لم نمش سوى دقيقة أو اثنتين حتى طرقت أمى بابا آخر، فوجدت نفسى مرة أخرى فى العتمة، على أرض عارية غير مستوية، لها رائحة بئر مهجور.

- ابنى معى - قالت أمى مرة أخرى.

ومن جديد سمعتهم يتحدثون عنى، أولئك الناس الذين لا أراهم، ومن بين الأصوات تعرفت أيضا على صوت لطفل صغير.

قالت أمى: هل لديكم أمبولات؟

- نعم، لدينا، أجاب صوت رجل.

كانت هناك أصوات أخرى تتحدث معا.

- أشعلى النار يا تيريزا.

- خذ القش.

وتكلم صوت الرجل مع صوت الطفل. كان صوت رجل يحمل بين ذراعيه ابنه الذى يبلغ عمره سنة أو سنتين. قالت أمى أشياء أخرى تخص ضرب الحقنة، ورد عليها الرجل، وآثار بعض

الضوضاء، وفتح أحد الأدراج وصوت الابن الصغير الحاد بين ذراعيه.

ثم التمع ضوء عود ثقاب فى قاع البئر المظلم، ورأيت يدى أمى، وانتهى وقت هذا الضوء على يديها فسمعت صوتها يسأل:

- حسنا؟

مرتين أو ثلاث مرات سألت: - حسنا؟

سألت: كيف يمضى الحال؟

سأل صوت الرجل وشاركها بقوة:

- كونشيتسيونى تقول: كيف يمضى الحال.

- إيه؟ - كان هذا هو الجواب.

وسألت أمى:

- هل أعطيتموها طعاما؟

- سوف نعطيها الشيكوريا هذا المساء - أجاب الصوت الذى كان صوت الرجل.

ثم حان بعد ذلك أوان السؤال عن كمية الحقن اللازمة التى يجب أن تأخذها، وتركنا هؤلاء الأرواح، وانصرفنا، وقالت أمى إن من حسن الحظ أن تمرض المرأة وليس الرجل، لأن مرض المرأة ليس مهما، بينما لو مرض الرجل فقل على الدنيا السلام...

- كيف أقول على الدنيا السلام؟ - قلت أنا.

- لن يأكلوا بعدها، لا صيفا ولا شتاء - قالت أمى.

وقالت إنه بشكل عام لا تعرف النساء كيف تتصرف عندما يمرض الرجل، وهن لا يعرفن حتى كيف يجمعن بعض أعواد الشيكوريا من الوادى، أو يخرجن للبحث عن قواقع فى الأرض غير المزروعة، لا يعرفن سوى أن يرقدن على الفراش إلى جوار الرجل.

ـ ٢٤ ـ

صارت موسيقى المزمار بعيدة عنا، بقمة البلدة، فأصحبت قولا وفعلا سحابة أو جليدا، ومن قاع الوادى راح يصعد إلى مسامعنا هدير سيل.

دخلنا إلى عتمة يختنق المرء فيها. كانت عتمة ودخانا، ومع هذا كان الناس غير المرئيين يتكلمون مثلما كانوا فى البيوت الأخرى. كان صوت أمى كذلك يتحدث دون أن يتأثر بالدخان.

- ابنى معى - قالت.

كررت كلامها نفسه الذى قالته فى المرات الأخرى، تحدثت عنى، ثم عن الحقن، ثم عن الإبرة، وللحظة التمع ضوء عود الثقاب على يديها. عندما مرت لحظة الضوء قالت:

- حسنا، كيف يمضى الحال؟

وكانت الإجابة: لا جديد!

سألت أمى: - هل أعطيتموها ما تأكله؟

- سوف نأكل الآن - كانت هذه هى الإجابة.

- نحن الآن نطبخ - إجابة أخرى.

كانت الأصوات كثيرة.

وهكذا خرجنا من جديد، وقالت أمى أشياء مختلفة تمام الاختلاف عن المرة السابقة. قالت إنه من المصائب أن تمرض المرأة الأم. كان من الأفضل أن يمرض الأب، هذا هو ما قالته. خاصة أن الرجال لا يعملون فى الشتاء، ولا يصلحون لأى شىء، فإذا مرضت المرأة قل على الدنيا السلام... لأن المرأة يمكنها دائما أن تذهب لجمع الشيكوريا فى الوادى و للبحث عن القواقع فى الأراضى غير المزروعة. المرأة الأم، كما تقول أمى كان يقع على عاتقها أمر البيت.

ودخلنا عتمة جديدة، ومن جديد أصبحت أمى غير مرئية، وتكلمت وهى غير مرئية.

تكلمت عنى: ابنى معى!

ثم تحدثت عن الحقن والإبرة وضربت الحقنة على شعلة عود الثقاب أنارت للحظة يديها. ثم سألت ما إذا كان المريض قد تناول طعاما وأجابوها بأنه سوف يأكل شيئا، اليوم أو فى الغد، وخرجنا وعادت أمى لتصبح مرئية وقالت عكس الكلام الذى قالته المرة السابقة، فأكدت أن الرجل إذا سقط مريضا فقل على الدنيا السلام...

ونزلنا مرة أخرى إلى حفرة سوداء فى الطريق الذى ابتعدت عنه الشمس نهائيا وأصبح فى الظل بتمامه، مع رنين أجراس الماعز وهدير السيل والبرد: دخلنا من جديد إلى أماكن معتمة وإلى رائحة البئر، إلى عتمة ورائحة العتمة، أو عتمة ودخان، وكانت أمى تتحدث

عنى استهلالا للحديث عن الحقن والإبرة والطعام الذى يمكن أن يكون المريض قد تناوله، فى كل مرة يستوقفها عند الانصراف صوت قلق يريد أن يعرف كم عدد الحقن المتبقية للشفاء، وما إذا كان لابد أن تتعدى الحقن المتبقية عددا معينا، خمسة أو سبعة أو عشرة مثلا.

كنا نتجول بهذه الطريقة فى صقلية الصغيرة المكدسة، صقلية أشجار البشملة وقرميد أسطح المنازل، وصخب السيل فى الخارج والأرواح والبرد والعتمة بالداخل، وكانت أمى معى مثل مخلوق غريب، تبدو نابضة بالحياة معى فى النور، ومع أولئك الآخرين أيضا فى الظلام، دون أن يخطئ اتجاهها، مثلما فقدته أنا بعض الشىء فى كل مرة دخلت فيها أو خرجت.

فى كل مرة عند خروجها كانت تقول لى عكس ما قالته المرة السابقة. مرة تقول إذا مرض الرجل فقل على الدنيا السلام... ومرة تقول إذا مرضت المرأة فقل على الدنيا السلام!

كما كانت تقول أيضا: بعضهم مصاب بالسل والبعض الآخر بالملاريا.

ومرة تقول إن الأفضل الإصابة بالملاريا بدلا من السل، ومرة تقول إن الأفضل هو الإصابة بالسل وليس بالملاريا، كانت تقول:

- مع الملاريا لا تضطر للذهاب إلى مدينة إينا لطلب الأدوية.

وكانت تحكى لى أن الذهاب إلى إينا لطلب الدواء من المستوصف كان صنفا من صنوف العذاب، فكان يجب أن تقطع مشوارا طويلا وتنفق اثنتين وثلاثين ليرة، مع احتمال المجازفة بأن

تكون المستشفى مغلقة. الناس كما روت لى كانت تذهب إلى إينا المرة الأولى ثم لا تكررها بعد ذلك أبدا. لم يكونوا يستطيعون.

- على عكس الملاريا كانت البلدية هى التى تصرف الدواء - هكذا كانت تقول.

ولكنها فى المرة التالية كانت تقول:

- مع السل يكفى أن تذهب إلى إينا وهناك لديهم الأدوية كلها التى تحتاج إليها.

حكت لى أنه من أكبر المصائب أن تعتمد على البلدية فى أدوية الملاريا. فالبلدية كانت فقيرة وليس عندها أدوية كثيرة ولم تكن تصرف أكثر من علبة. كيف يمكن الشفاء بعلبة دواء واحدة؟

- على العكس فى حالة السل كان مستوصف إينا هو الذى يصرف الدواء - هكذا كانت تقول.

- مستوصف كبير وغنى، شىء تابع للحكومة - وهكذا كانت تقول.

وفى كل مرة كانت تقول عكس المرة السابقة.

- ٢٥ -

بعد أن أصبحنا أقرب من صخب هدير الماء فى السيل دخلنا بيتا فيه ضوء.

لم يكن من البيوت المحفورة فى الصخر، وإنما كان مبنيا بالحجارة، ويرتفع وسط البستان الخاص به على حافة الطريق. كانت به نافذة فى الخلف، ومن تلك النافذة كان يدخل قليل من النور.

- مساء الخير، ابنى معى - قالت أمى وهى تدخل.

لم تتحول أمى إلى روح غير مرئية، ورأيت الناس، رأيت فيهم كل الناس الذين لم أرهم من قبل، رأيت مريضا على الفراش، رجلا بعينين مغمضتين ووجه متسخ بلحيته، ورأيت خمس نساء أو ستًا مثل الراهبات يجلسن عند أقدام السرير، حول سطل موضوع على الأرض.

كما هى العادة تحدثت أمى عنى، وقالت: ابنى معى.

وقد لاحظت كيف تقول هذا، ولاحظت كيف ينظر لى الآخرون بعد كلامها.

- لديك ابن كبير! قالت إحداهن.

- أبنائى كلهم كبار، وهذا أكبرهم - قالت أمى.

وسألت المرأة:

- من أين جاء؟

تحدثوا عنى كالعادة، أمى والنساء، ورأيت أن السطل ملىء بالقواقع الحلزون السوداء، وكن يتناولن هذه القواقع واحدة تلو الأخرى، ويمصمصنها. كن نساء شابات ومسنات، يرتدين الملابس الداكنة، وعندما كن يمصمصن القواقع كن يرمين بقشورها فى السطل مرة أخرى.

- شهية طيبة - قالت أمى.

ثم راحت تتكلم عن الحقن، وعن الإبرة، وعن الاتير، وفتحت حقيبتها، وأدارت المريض على وجهه وضربت له الحقنة.

رأيت المريض ما يزال فاغراً فاه.

- كيف يمضى الحال؟- سألته أمى.

لم تكن هناك إجابة. ومن جديد راحت أمى تسأل: كيف يمضى الحال؟

أجابت امرأة مسنة:

- لا فائدة من الحديث معه.... فهو لا يتكلم.

- لا يتكلم - ردت امرأة أخرى.

كانت النساء الخمس يمصمصن وهن جالسات عند أقدام السرير، وقالت أكبرهن سنا بصوت عال:

- تكلم يا جايتانو. كونشتسيونى تكلمك.

استدار المريض ببطء على جنبه، ولكنه لم يرد. واستدارت المرأة المسنة إلى أمى وقالت:

- أرأيت؟ لا يريد أن يتكلم.

انحنت أمى على المريض، ورأيتها أنا تضع يدها على كتفه.

- ما هذه الحكاية يا جايتانو؟ ألا تريد أن تتكلم؟ - قالت.

ببطء استدار المريض من وضعه ورقد على ظهره وأظهر وجهه، ولكنه ظل ممتنعا عن الرد. كذلك لم يفتح عينيه.

- لا فائدة يا كونشتسيونى - قالت المرأة المسنة. لا يريد أن يتكلم... منذ الأمس وهو لا يتكلم.

سألت أمى:

- هل أكل؟

أشارت النساء إلى السطل وأجابت أكبرهن سنا:

- نعم، أكل.

فجأة تكلم المريض. قال كلمة نابية.

كنت أنظر إليه ورأيت أنه قد فتح عينيه وسلطهما نحوى، جعل يتفحصنى وأنا أتفحصه، ومن خلال عينيه هاتين، وللحظة، شعرت كما لو أننا كنا وحدنا، إنسان وإنسان، بغض النظر عن حالته المرضية. لم أر حتى لون عينيه، لم أر فيها سوى الجنس البشرى الذى يمثلانه.

- من أين جئت؟ ـ قال.

- أنا ابن كونشتسيونى، - قلت أنا.

أغمض الرجل عينيه وقالت أمى للنساء:

- حاولوا مراعاة مزاجه. ثم قالت لى:

- هيا بنا يا سيلفسترو.

ـ ٢٦ ـ

لقد عانيت المرض لعدة أشهر، منذ وقت غير بعيد، ولهذا كنت أعرف عمق معنى أن يكون المرء مريضا، ذلك البؤس العميق الكامن فى الجنس البشرى البائس العمالى، خاصة عندما نظل طريحى الفراش عشرين أو ثلاثين يوما، ونظل بين أربعة جدران، نحن وقماش أغطية الفراش، نحن ومعدن أدوات المطبخ، نحن وخشب المقاعد والموائد والدواليب.

ليس هناك شىء آخر فى العالم، وننظر إلى هذه الأشياء، قطع الأثاث، ولكن لا يمكن أن نعمل منها شيئا، لا نستطيع أن نصنع حساء من المقعد أو من الدولاب. مع أن الدولاب كبير جدا، قد يكفى للأكل عدة أشهر. وننظر إلى هذه الأشياء كما لو كانت أطعمة تؤكل. وربما كان هذا هو السبب فى أن الأطفال يصبحون خطرين ويحطمون ويهشمون...

الطفل الأصغر يضع رجل الكرسى فى فمه طوال النهار، ويصرخ إذا حاولت أمه أن تنزعه من فمه. وهى، أى الأم، أو الزوجة، أيا كانت المرافقة، تنظر إلى الكتب، وبين الفينة والأخرى

تتناول كتابا وتقرأ فيه. تقضى الساعات فى تصفح الكتاب، والمريض يسأل:

- ماذا تقرئين؟

لا تعرف المرأة ماذا تقرأ، ولكن كتابا يمكن أن يكون أى شىء، معجم ألفاظ أو كتابا عتيقا فى النحو، عندئذ يقول المريض:

- الآن بالتحديد تريدين أن تتثقفى.

وتعيد المرأة الكتاب إلى مكانه. ثم تعود بعد ذلك للنظر فى هذا الصف، صف الكتب، لا صف الأشياء التى تؤكل، ثم تعود لتتناول منها كتابا، وهذه المرة تخرج من البيت، تبقى خارجه بعض الوقت بعد الظهيرة.

- بكم بعته؟ يسأل المريض بعد ذلك.

تقول المرأة إنها باعته بليرة وخمسين، ولا يسر المريض، لذلك لا يفهم الموقف فهما كافيا، فالحمى لا تريد أن تتركه، وأنما تظل تلازمه فى السرير العتيق أياما وأياما. ولكنه كان يود شيئا، بدلا من هذا الكتاب، الذى كان كتابه وهو شاب صغير، كان يريد بعض الحساء، وفى النهاية يصيح فى زوجته التى بدلا من ذلك راحت تشترى الجبن والخبز لها وللأطفال.

- طيور جارحة - يقول عن الأطفال.

يعطونهم بالمدرسة كل يوم صحنا من الحساء. هذه مبادرة جيدة، أن يعطوا كل يوم صحنا من الحساء، لأبناء من يموتون جوعا. ولكنه يبدو مجرد فاتح للشهية، فبعد هذه الملاعق الصغيرة من الحساء يعود الأطفال إلى البيت وقد شحذوا أسنانهم، ولا يقبلون الحوار

بالعقل، يريدون الأكل مهما كانت الحال، ويصبحون مثل الحيوانات المتوحشة، يلتهمون حتى سيقان المقاعد الخشبية، بل يودون لو ابتلعوا أباهم وأمهم.

ولو وجدوا المريض وحده ذات يوم لالتهموه. على الكومودينو، إلى جوار رأس المريض، توجد العقاقير. يصل الأطفال من المدرسة. بأسنانهم المشحوذة، بشراهة الجوع الذى زاد تناول الحساء شراهته. يقتربون من المريض كما لو أنهم يريدون التهامه، يمشون نحوه على أطراف أصابعهم مثل الذئاب... ولكن الأم فى البيت، ولهذا يترك الأطفال المريض، ويصوبون انتباههم نحو العقاقير.

- طيور جوارح! يقول المريض.

فى تلك الأثناء، يكون عامل الغاز قد قطع الغاز، وعامل النور قد قطع النور، يقضون ليالى عديدة فى الظلام فى غرفة المريض. الماء فقط هو الذى لم يتم قطعه. محصل المياه لا يأتى إلا كل ستة أشهر، وهكذا لا يتعرضون لخطر وصوله الوشيك وقطعه المياه، وهكذا كانوا يشربون ويشربون ويشربون، يشربون أكبر قدر يستطيعون من ماء: ماء مطهى بكافة الطرق، وماء غير مطهى أيضا.

ولكن هناك صاحبة البيت التى تأتى كل يوم، تريد أن ترى "السيد المريض"، تريد أن تراه وجها لوجه، وعندما تدخل وتراه تقول له:

- حسنا يا سيدى المريض، ليس هناك ترف يفوق هذا، لا تدفع الإيجار وتظل متقاعسا فى الفراش... على الأقل أرسل لى زوجتك لكى تغسل لى الصحون.

وتذهب المرأة إلى صاحبة البيت، لكى تغسل الصحون، وتغسل البلاط، وتغسل الملابس. كل ذلك من حساب الإيجار الذى لم يدفع. والمريض يظل وحيدا فى البيت ساعات طويلة، والحمى الخالدة إلى جواره تضرب وجهه، تضربه وتضربه، وتهزه، كما لو أنها تستغل وجوده وحيدا.

تعود الزوجة ويسألها المريض ما إذا كانت قد جاءت بشىء من عند صاحبة البيت.

- لا شىء - تقول الزوجة.

لا تحضر من عندها شيئا أبدا.

- ولكن لماذا لا تذهبين لجمع الأعشاب البرية؟ سألها.

وتقول الزوجة: أين؟

تسير عبر الطرق حتى تصل إلى غابة الأشجار. كان هناك عشب فى المروج، وخضرة على الأشجار، كله شىء أخضر، فتنزع الأعشاب، وتنزع أغصان الأرز والصنوبر، ثم تذهب إلى الحدائق وتقطف الزهور، وتعود إلى البيت بالخضرة، أوراق شجر وزهور تخفيها فى صدرها. ترمى بكل هذا على المريض وها هو يصبح رجلا بين الزهور.

- هاك الخضرة! - تقول الزوجة.

ـ ٢٧ ـ

هذا ما كنت أعرفه وأكثر من ذلك، كنت أستطيع أن أفهم بؤس المريض وبؤس أهله من حوله، داخل بؤس الجنس البشرى العمالى. ألا يعرف كل إنسان؟ ألا يستطيع كل إنسان أن يفهمه؟ كل إنسان عرف المرض ذات يوم، فى حياته، عرف هذا الغريب الذى كان بداخله، أى المرض، وعجزه أمام هذا الغريب. يستطيع أن يفهم مثيله...

ولكن ربما ليس كل إنسان إنسانا. وليس كل الجنس البشرى جنسا بشريا. هذا الشك يأتى فى المطر، عندما يكون حذاء الإنسان مقطوعا، وتدخل المياه فى الحذاء المقطوع، لن يكون هناك شخص معين يشغل قلبه، لن يكون هناك شىء معين، ولن يكون هناك شىء يمكن عمله، ولا شىء يمكن الخوف منه، ولا شىء يمكن أن يضيع، ويرى فيما وراء نفسه مذابح العالم. إنسان يضحك وإنسان آخر يبكى. وكلاهما إنسان؛ وذلك الذى يضحك كان كذلك مريضا، وهو مريض، ومع ذلك فهو يضحك لأن الآخر يبكى. إنه يستطيع أن يقيم المجازر وأن يضطهد، ويراه واحد، فى اللا أمل، يراه يضحك فى

صفحات صحفه، وفى إعلانات صحفه، ولا يشاركه ضحكه، وإنما يبكى على الأقل، فى السكون، مع ذلك الآخر الذى يبكى. ليس كل إنسان إنسانا إذن. واحد يطارد وواحد مطارد. فالجنس البشرى ليس كله جنسا بشريا، ولكنه جنس المطارد فقط. اقتلوا إنسانا وسوف يصبح إنسانا أكثر. ولهذا فإن المريض أو الجوعان إنما هو إنسان أكثر. والجنس البشرى الأكثر إنسانية هو جنس الموتى جوعا.
سألت أمى: ما رأيك أنت؟

- فى ماذا؟ - قالت أمى.

وقلت أنا: فى كل أولئك الذين تحقنيهم.

وقالت أمى: أعتقد أنهم لن يستطيعوا أن يدفعوا لى أجرى.

- حسنا، قلت أنا: ومع ذلك فأنت تذهبين إليهم كل يوم، وتعطينهم الحقنة، وتأملين أيضا أن يتمكنوا من الدفع بأى طريقة. ولكن كيف ترينهم؟ ماذا تعتقدين أنهم يكونون؟

- أنا لا آمل - قالت أمى. أنا أعرف أن بعضهم يستطيع أن يدفع وبعضهم لا. أنا لا آمل.

- ومع هذا تذهبين إليهم جميعا، - قلت أنا. ولكن كيف ترينهم؟

وصاحت أمى: - أوه! إذا ذهبت إلى واحد منهم أستطيع أن أذهب أيضا إلى الآخر. لا يكلفنى هذا شيئا.

وقلت أنا: - ولكن كيف ترينهم؟ ماذا تعتقدين أنهم يكونون؟

توقفت أمى فى عرض الطريق الذى كنا فيه ووجهت لى نظرة تميل للحول. ابتسمت أيضا وقالت لى:

- ما هذه الأسئلة الغريبة؟ كيف ينبغى أن أنظر إليهم؟ إنهم أناس فقراء، مصابون بشىء من السل وبشىء من الملاريا...

هززت رأسى . كنت أطرح أسئلة غريبة، وأمى ترى هذا، ومع ذلك لم تعطنى إجابات غريبة. وأنا كنت أريد هذا، كنت أريد إجابات غريبة. سألت:

- هل رأيت صينيا أبدا؟

- مؤكد - قالت أمى. رأيت واحدا أو اثنين. ممن يمرون لبيع العقود.

- حسنا، - قلت أنا. عندما ترين أمامك رجلا صينيا وتنظرين إليه فترين أنه فى عز البرد لا يرتدى المعطف وأن ثوبه ممزق وحذاءه مقطوع، فماذا تعتبرينه؟

- آه! لا شىء على وجه التحديد - أجابت أمى. أرى كثيرين غيره، عندنا هنا أيضا، ممن ليس لديهم معطف وملابسهم ممزقة وأحذيتهم مقطوعة...

- حسنا - قلت أنا. ولكنه صينى، لا يعرف لغتنا، ولا يستطيع أن يتكلم مع أحد، ويسافر بيننا ومعه عقوده وأربطة العنق والأحزمة، وليس عنده خبز، ولا مال، ولم يبع شيئا مطلقا، ليس عنده أمل. ماذا يرد بفكرك أنت عندما ترين رجلا صينيا فقيرا بلا أمل؟

- أوه! أرى أناسا كثيرين عندنا على الشاكلة نفسها ... صقليون فقراء بلا أمل.

- أعرف هذا - قلت أنا. ولكنه صينى. له وجه أصفر، عيناه مائلتان وأنفه مفطوس، وعظام وجهه بارزة، وربما كان كريه الرائحة

أيضا. واللا أمل عنده أكثر من الآخرين جميعا. لا يستطيع أن يمتلك شيئا. ماذا تعتبرينه أنت؟

- أوه! - أجابت أمى. كثيرون آخرون ليسوا من الصينيين الفقراء ولهم وجه أصفر أيضا وأنف مفطوس وربما تفوح منهم رائحة كريهة. ليسوا فقراء صينيين، وإنما فقراء صقليون، وهم أيضا لا يملكون شيئا.

- ولكن اسمعى - قلت أنا. إنه فقير صينى موجود فى صقلية، وليس فى الصين، ولا يستطيع حتى أن يتحدث عن الجو الجميل مع امرأة. ولكن الفقير الصقلى يستطيع....

- ولماذا لا يستطيع الفقير الصينى؟ - سألت أمى.

- حسنا - قلت أنا. أتخيل أن أية امرأة لن تعطى شيئا لبائع جائل فقير إذا كان صينيا وليس صقليا...

رفعت أمى أحد حاجبيها:

- لا يمكننى أن أعرف ذلك - قالت.

- أرأيت؟ - صحت أنا. الفقير الصينى أكثر فقرا من الآخرين جميعا. ماذا تعتبرينه أنت؟

شعرت أمى بالضيق.

- ليذهب الصينى إلى الجحيم - قالت.

وتعجبت أنا: أرأيت؟ إنه أكثر فقرا من الفقراء جميعا وأنت ترسلينه إلى الجحيم. وعندما أرسلته إلى الجحيم وأنت تعرفين كم هو فقير فى هذا العالم، وكم هو معدوم الأمل وذاهب إلى الجحيم، ألا يبدو لك أنه أكثر الأجناس البشرية إنسانية؟

نظرت إلى أمى وهى لا تزال تشعر بالضيق:

- الصينى؟ - قالت.

- الصينى - قلت أنا. وأيضا الصقلى الفقير المريض الذى يرقد فى الفراش مثل أولئك الذين تعطين لهم الحقن. أليس أكثر إنسانية، أليس أكثر انتماء إلى الجنس البشرى؟

- هو؟ - قالت أمى.

- هو - قلت أنا.

وقالت أمى: أكثر ممن؟

وأجبت أنا: - أكثر من الآخرين. إن من كان مريضًا... يعانى.

- يعانى؟ - تعجبت أمى. إنه المرض.

- فقط؟ - قلت أنا.

- إذا أزلت المرض فكل شىء سوف يزول، قالت أمى. ـ ليس شيئًا هنيًا... إنه المرض.

حينئذ سألت أنا:

- وعندما يكون جائعا ويعانى، ماذا يكون ذلك؟

- حسنا، إنه الجوع ـ أجابت أمى.

- فقط؟ - قلت أنا.

- أعطه يأكل وسوف يزول كل شىء. إنه الجوع.

وهززت رأسى. لا أستطيع أن أحصل على إجابات غريبة من أمى. ومع هذا قلت مرة أخرى:

- والصينى؟

لم تعطنى أمى حينئذ إجابة، لا إجابة غريبة ولا إجابة غير غريبة. انكمشت بين كتفيها. كان الحق معها بالطبع: انزع المرض عن المريض ولن يكون هناك ألم، أعط الجوعان ما يسد رمقه ولن يكون هناك ألم. ولكن الإنسان فى المرض، ماذا يكون؟ وماذا يكون فى الجوع؟

أليس الجوع هو أن يتحول كل ألم العالم إلى جوع؟ أما يكون الإنسان أكثر إنسانية إذا جاع؟ أما يكون جنسا بشريا أجدر بأن يكون إنسانا؟ والصينى، ماذا يكون؟....

-٢٨-

الآن وقد انتهى النزول من جبل المنازل بدأ الصعود إلى جانب آخر، بدءاً من عمق الوادى الضيق، فى اتجاه موسيقى القرب التى كانت بأعلى مثل السحابة أو الجليد.

- ألم تمرضى أنت أبدا؟ - سألت أمى.

- مرة - ردت أمى.

- وماذا كان المرض؟ - سألته أمى.

- لا أعرف، أجابت أمى. - لم أذهب إلى الطبيب ولم أعرف ماذا كان المرض... شفيت من تلقاء نفسى.

- شفيت من تلقاء نفسك؟ - قلت أنا. أنت دائما حالة خاصة...

- حالة خاصة! - تعجبت أمى. كيف؟

- أريد أن أقول إنك ربما كنت تظنين أنك مختلفة عن الآخرين. أليس كذلك؟ - قلت أنا.

- أنا لم أكن أظن شيئا - قالت أمى.

وسألت أنا:

- ألم يمرض أبى أبدا؟

- طبعا مرض - ردت أمى. كان مريضا فى كل وقت، كان مصابا بالملاريا.

- هاك إذن، كان أبى يحتاج الطبيب.

وقالت أمى:

- طبعا، كان مثل طفل. كان يرتجف بردا وترتفع حرارته، وكان واضحا أنها الملاريا، ومع ذلك كان يريد الطبيب...

وقلت أنا: كان أبى إنسانا هادئ الطبع.

وقالت أمى: كان يخاف.

وقلت أنا: كان إنسانا هادئا

شعرت بشيء من التعب. كان الشارع صاعدا، وعند تلك النقطة كان هنالك سور منخفض على أحد جانبيه. استندت على السور. كنت قد بدأت رحلتى من السكون فى اللا أمل، وما زلت مسافرا. كانت الرحلة أيضا حوارا، حاضرا، ماضيا، ذاكرة، خيالا. لم تكن بالنسبة لى حياة، وإنما حركة. واستندت على الجدار القصير، وفكرت فى أبى المتعب، وهو بعينيه الزرقاوين ليس ماكبث، وليس ملكا . كان مريضا، وكان محملا بكل آلام العالم، وكان يقبل ألا يكون ماكبث، وكان يطلب الطبيب، ويريد أن يشفى، كان مثل طفل صغير. هل يكون الإنسان إنسانا أكثر عندما يكون مثل الطفل؟ عندما يكون متواضعا، ويعترف ببؤسه، ويصرخ وهو فى شقائه هذا. هل يكون أحق بالانتماء إلى الجنس البشرى؟

- كان إنسانا متواضعا فى حقيقته - قلت من جديد.

نظرت إلى أمى وسحبت يدى عن السور.

- ألم يمرض جدى أبدا؟ - سألت.

- كان مريضا جدا - ردت أمى.

- كيف؟ - تعجبت أنا - هو أيضا؟

- ولم لا؟ - قالت أمى. عندما كان فى الأربعين من عمره، وكان عمرى وقتها سبع سنوات أو ثمانى.

- أتصور أنه لم يطلب الطبيب، - قلت أنا.

- لا - قالت أمى. شفى من تلقاء نفسه... جاء ذات مرة طبيب الفقراء ولكنه لم يعد قط، لم يكن أبى يريده.

وقلت أنا: طبعا! كان يظن أنه حالة خاصة.

وقالت أمى: ما هذا الكلام الفارغ؟ إنما كان يرى أنه ليس مريضا...

- آه طبعا، - قلت أنا. كان يتصور أنه حالة خاصة... لا يمكن لواحد مثله أن يمرض. كان رجلا فخورا بنفسه!

رفعت أمى قامتها، وكانت فخورة.

- طبعا، كان رجلا معتزا بنفسه - قالت.

- وماذا كان المرض؟ - سألت أنا. شىء من السل أم شىء من الملاريا؟

- لا، لا. كان شديد المرض - قالت. - مات وعاد مرة أخرى للحياة!

لم أعد أستند على السور، وإنما على ذراع أمى، وفكرت فى الرجال، فى نفسى وفى أبى، وفى جدى، الرجال رجال متواضعون ورجال فخورون، وفكرت فى الإنسانية وفى الشموخ مع البؤس، وكنت فخورا بأننى ابن إنسان.

من المؤكد أنه كان هناك من هو ليس بإنسان، وليس كل الجنس البشرى جنسا بشريا. ولكن ليس عندما يكون الإنسان متواضعا لا يكون إنسانا، ولا حتى إن كان فخورا بنفسه.

الإنسان من حقه أنْ يصرخ كطفل فى حالة بؤسه ويكون أكثر إنسانية.

ويحق له أن ينكر بؤسه وأن يكون شامخا ويظل أكثر إنسانية كذلك.

الرجل الأبى هو نفسه لومباردى عظيم يفكر فى واجبات أخرى ذلك إن كان إنسانا. ولهذا فهو أكثر إنسانية. ولهذا أيضا فربما كان مرضه موتًا وبعثًا.

- كان التهابا رئويا، قالت أمى. أو شيئا آخر من هذا القبيل. ولم يكن يريد الطبيب. قال إنه ليس مريضا. وطرد طبيب الفقراء. قال للدكتور إن الخبز غال جدا على الفقراء. كل لقمة تكلف يوم عامل. وطرد الطبيب. نحن يجب علينا أن نعمل، هذا ما قاله له. واستمر يعمل أربعة عشر ساعة يوميا كعادته. حتى مات ذات ليلة وبعث.

- كان جدى عظيما - قلت أنا.

- كان عظيما - قالت الأم.

كنا قد خرجنا من ظلال الوادى الضيق على طول الطريق ووصلنا إلى المنطقة المشمسة، وقالت أمى:

- ما رأيك فى أننى أعطى الحقن؟ شىء طيب، أليس كذلك؟

- طيب جدا - قلت أنا.

- أرأيت - قالت أمى، بنبرة تنم عن زهو النصر والرضا.

- أرأيت؟ - قالت. أستطيع أن أكسب قوتى وحدى.

كنا قد وصلنا هدير السيل، أصبحنا فى الشمس، فى مواجهتها، وهى توشك على الغروب، وأخذت تصل إلى أسماعنا سحابة موسيقى المزمار أو جليدها وهى تمتد على قمة البلدة.

- لنذهب الآن إلى الأرملة - قالت أمى - هذه المرأة عندها بعض المال وتدفع نقدا.

ـ ٢٩ ـ

كانت الأرملة تبلغ من العمر نحو الأربعين عاما، جميلة القوام، وتسكن فى الطابق الأول فى شقة من غرفتين أو ثلاث لها سقف عال.

- يسمونها الأرملة، قالت أمى، ولكنها ليست أرملة فى الحقيقة، وإنما هى محظية سيد من علية القوم...

- ولماذا تأخذ الحقن؟ - قلت أنا.

- لأنها من علية القوم - أجابت أمى. السادة يأخذون الحقن. وهى اعتادت أن تفعل مثلهم. ولكن ربما كانت مصابة ببعض السل أيضا.

كانت امرأة مثيرة، بضة القوام. يبدو أنها كانت تعيش وحيدة وسط غرف مسكنها الكبيرة. فتحت لنا الباب بنفسها.

- كنت أنتظركم يا كونشتسيونى - قالت. عرفت بوصول ابنك، هل هو هذا؟

كانت تعم البيت رائحة قوية منذ أن تدخل من الباب، كما لو أن عصير عنب الخريف كله قد ترك فيه لكى يتخمر. هذه هى رائحة

البيوت غير الفقيرة فى صقلية، تثير التقزز لا التلذذ، وهى صديقة حميمة للعتمة.

استقبلتنا الأرملة بحفاوة صاخبة وهى تضحك، وكان صدرها كبيرا ممتلئا، وصوتها ثرى ينطلق من صدر ممتلئ الثديين، وعيناها سودوان، وشعرها أسود.

- أعتقد أننى أحسنت صنعا باصطحابه معى - قالت أمى. كم هو جميل ابنى، كم هو جميل، أليس كذلك؟

- طويل القامة وقوى! - قالت الأرملة. جدير بأن يكون ابنك يا كونشتسيونى.

وضحكت ضحكة مجلجلة. تقدمتنا نحو غرفتها، التى كانت تفوح منها رائحة باب السلم نفسها، رائحة عصير العنب المتخمر، بل وقليل من رائحة القرفة. وكانت الغرف قديمة، لا تكتظ بالأثاث، ولم يكن على جدرانها سوى بعض المراوح من البطاقات الورقية المصورة، وكانت أيضا معتمة ليس بها من الضوء الكثير، لأن شرفاتها كانت تطل على حديقة صغيرة مغلقة من الناحية الشمالية.

ظلت أمى تتحدث عنى.

- كيف عرفتم أنه وصل عندى - قالت. أعتقد أننى أحسنت صنعا باصطحابه معى...

- أوه - ردت الأرملة. كنت سأظل رهينة الرغبة فى التعرف عليه.

أصرت على أن تقدم لها شرابا وبسكويتا. من عند المنضدة التى قدمت لنا عليها الشراب والأكل كان يمكن رؤية المنزل بأكمله. غرفتان أو ثلاث غرف كبيرة متعددة الأبواب، كلها مفتوحة على مصراعيها، وفى كل غرفة منضدة، وسرير ضخم بمفرش أحمر فى إحداها.

- وها نحن - قالت الأرملة.

وضحكت ضحكة مجلجلة. وجهت لى بعض الأسئلة عن شمال إيطاليا. وسألت أمى إن كانت قد أخذتنى معها فى كل بيوت زبائنها.

- طبعا، قالت أمى. وكانت سعيدة بأنها أدخلتنى كل البيوت. وأضافت أنها أرادت أن ترينى مهارتها فى ضرب الحقن. وضحكت الأرملة. نظرت لى، أنا الرجل، بعينين سودواين، وبصوت ثرى يصعد من صدر ممتلئ الثديين قالت:

- أما معى فلا يا كونشتسيونى.

- ما هو الذى لا تريدينه معك؟ - قالت أمى.

- معى، لا تريه مهارتك فى ضرب الحقن.

- ولم لا؟ - قالت أمى.

ضحكت الأرملة وقالت:

- أنا لا أسمح لأحد بأن يعطينى الحقنة أمامه.

- لم لا، - قالت أمى، وهى تملى إرادتها فى أن تفرضنى عليها.

- لم لا؟ قالت.

- لا ضرورة لذلك يا كونشتسيونى - أجابت الأرملة. لا ضرورة لأخذ الحقنة هنا - قالت. بالبيت غرف كثيرة. يمكن أن ينتظر بها دون أن ينزل إلى الشارع.

- ولكن العلة ليست هنا - قالت أمى. أنا أريده أن يرى كيف أضرب الحقن.

- لقد أريته ما يكفى ويزيد - قالت الأرملة. ليس من اللازم أن يرى هذا أيضا هنا.

والتفتت نحوى وهى تضحك وقالت:

- أليس كذلك يا سيد سيلفسترو؟

- بلى، أظن هذا، - قلت أنا. ولكن كنت أحب ألا أغادر المكان.

- ماذا تعنى «بلى» - قالت لى أمى. ألا تريد أن ترانى وأنا أضرب الحقنة للسيدة.

- أوه، بلى - أجبت أنا.

- هاك هو - قالت أمى. يريد أن يرى....

- ولكن يا كونشتسيونى! - تعجبت الأرملة. أنا لا أريده أن يرانى.

ضحكت أمى. - ها ها - قالت. ولكنه ابنى. مثله مثلى ...

- ولكنه شاب كبير - قالت الأرملة.

وقالت أمى: هل تعتقدين أنه لم ير فى حياته نساء أبدا؟

لم تقل الأرملة شيئا بعدها. ضحكت واستسلمت. وبإيماءة نحوى قالت وهى تضحك:

- إنه هو الذى ينتظر، الخبيث!

تمددت على الفراش وكشفتها أمى.

- هذا استغلال يا كونشتسيونى - قالت على الوسادة وهى تضحك.

ورشقت أمى الإبرة فى لحمها بتلذذ، ثم نظرت نحوى ظافرة وهى تلمح لهذا اللحم وقالت: هل رأيت كم هى مليحة؟

كانت الأرملة تتحرك مضطربة على السرير وهى تضحك:

- أوه يا كونشتسيونى! - كانت تقول.

- إن عمرها أربعون سنة تقريبا - قالت أمى.

أما أنا فأطريت جمالها.

وصاحت الأرملة: أوه يا سيد سيلفسترو!

تماسكت، وأرادت أن تنهض، ولكن أمى أبقتها راقدة، بل وأزاحت عنها ملابسها بما هو أكثر.

- انتظرى حتى يراك جيدا - قالت، ووجهت كلامها لى وهى تضيف: - انظر يا سيلفسترو!

- ولكن هذا استغلال! - قالت الأرملة. وحاولت الفكاك والنهوض. وفى النهاية تركتها أمى تنهض، وقالت لى الأرملة وهى تضحك وقد احمر وجهها خجلا: أنت خبيث كبير يا سيد سيلفسترو!!

حيتنا بحرارة، وخرجنا أنا وأمى إلى الشارع، بين موسيقى مزمار الرعاة والشمس فى مواجهتها وكانت تميل للغروب، وضحكنا،

وقالت لى أمى إن الأرملة مرت بتجارب كثيرة، لأنها كانت عشيقة، ومن ثم كانت لا تحس باستقرار فى حياتها.

- ولكنها امرأة طيبة - قالت. وجسمها جميل، أليس كذلك؟ - أضافت. ونظرت لى وغمزت بعينها، وفى تلك الأثناء كنا نعبر الشارع.

- أى نعم! - قلت أنا.

- وبشرتها نضرة - أضافت أمى.

- أى نعم! - قلت أنا.

- وهى إحدى أفضل النساء حفاظا على جمالها فى مثل عمرها فى هذا البلد.

وقلت أنا: واضح!

وقالت أمى: ولكن هناك من هن أفضل منها فى مثل عمرها.

- أنا فى مثل عمرها كنت أجمل منها - أضافت. ولا أعتقد أننى سأكون أسوأ منها الآن وأنا عمرى خمسون عاما - قالت أيضا.

- لا لا! - قلت أنا.

- إننى لا زلت أحتفظ بنضارتى، أليس كذلك؟

- بلى بلى! - قلت أنا. ليس لديك ولا شعرة بيضاء واحدة.

وقالت أمى: ولو رأيت كم أنا بضة البدن.

وقلت أنا: يمكنك أن تفخرى بنفسك.

- بالطبع - أكدت أمى كلامى. كنت أقول هذا لوالدك. يجب أن تفخر بأن لك زوجة بضة البدن فى مثل عمرى... ولكنه لا يفهم أى

شىء فى النساء. لم يكن يتحدث إلا فى الأيدى الناعمة والعيون وما إلى ذلك فى قصائده.

- أتصور أنه ما كان يمكنه الحديث عن غير هذا فى القصائد،

- قلت أنا.

- حسنا، ولكن كان يمكنه على الأقل أن يرى باقى الأشياء قبل أن يتكلم - قالت أمى. لوْ كان قد أخذ الباقى فى اعتباره لأمكنه أن يفخر بى. كان أبى فخورا بى وببنتيه الأخريين... كان يقول: إنه لا توجد بنات لها مشدودة الظهر مثلنا فى صقلية كلها... آه، أبى هو الذى كان فخورا بى!

- ٣٠ -

على مستوى أعلى وفى مواجهة الشمس التى كانت تغرب، كنا قد وصلنا إلى بوابة أخرى، مثل بوابة الأرملة ولكنها أصغر وأقل جمالا، وكانت إحدى مطرقتيها مكسورة.

- نذهب الآن إلى إحدى صديقاتى - قالت أمى.

- لكى تعطيها الحقنة هى أيضا؟ - قلت أنا.

- نعم - أجابت أمى. أريدك أن ترى كم هى غضة الأخرى... ربما أكثر من الأرملة... وهى أيضا تبلغ من العمر أربعين عاما تقريبا.

- وهل هى الأخرى أرملة؟ - سألت أنا. أريد أن أقول، هل كانت هى الأخرى رفيقة لأحد السادة؟

- لا، لا! - أجابت أمى. إنها امرأة متزوجة ولديها أربعة أبناء. دخلنا من البوابة الصغيرة المتآكلة من السوس إلى طرقة، وهناك على السلم كانت هناك رائحة العنب المتخمر الذى يميز بيوت غير الفقراء فى صقلية. ولكن الرائحة كانت أقل فى البيت. كان كل

شىء فى البيت قديما للغاية، مثل الأثاث وبلاط الأرضية والستائر وأغطية الفراش، كان كل شىء قديما حقا، تسيطر عليه رائحة التراب.

- ولماذا تأخذ الحقن؟ - سألت أنا. - هل هى مريضة؟

- لا - قالت أمى. تظن أنها تعانى قليلا من فقر الدم.

- وهل ستسمح لك بضرب الحقنة أمامى؟ - سألت أنا.

- وكيف لا؟ - قالت أمى.

- ولكنها إن لم تشأ فلا تلحى عليها - قلت أنا.

- من المؤكد أنها سوف تريد، قالت أمى.

دخلنا البيت يسبقنا طفل عمره خمس سنوات فتح لنا الباب، وجاء فى مقابلتنا طفلان آخران: أحدهما ربما كان فى السابعة والثانى ما بين الثامنة والتاسعة، بشعر طويل ومرايل طويلة، ولهذا كان من الصعب تحديد أهما من الذكور أم من الإناث. كونشيتسيونى! كونشيتسيونى! كانوا يصيحون، وهم يروحون بنا ويجيئون فى أنحاء البيت، وكل الغرف معتمة جدا، ثم من شرفة جاءت نحونا فتاة عمرها ما بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، وراحت تقول هى أيضا: "كونشيتسيونى، كونشيتسيونى!".

وفى النهاية جاءتنا السيدة صديقة والدتى: كونشيتسيونى! كونشيتسيونى!، قالت.

كانت امرأة لم تتقدم بها السن، ولا ينم مظهرها إطلاقا عن إصابتها بفقر الدم، بل ملفوفة القوام، شابة وجذابة تتمتع ببشرة ناعمة البشرة. رمت نفسها على أمى، وقبلتها، وذراعاها يحيطان

بعنقها، كأنها لم ترها منذ شهور، وهى بين الأطفال يتقافزون ويتصايحون، قالت: كنت أعرف أنك سوف تصحبين ابنك معك!

- هل عرفت أنه قد وصل؟ - قالت أمى.

- نعم - قالت صديقة أمى. لقد عرفت على الفور، وهكذا توقعت أنك سوف تصحبينه معك. كم هو ابن جميل!

كان الأطفال يتصايحون، وكانت الفتاة تتكلم، وكنا فى غرفة بها سرير عريض عال جدا، وقالت أمى لصديقتها:

- هيا، نامى على الفراش!

- هل ستعطيننى الحقنة أمامه؟ - قالت صديقة أمى.

- لماذا؟ هل تريدين أن أطرده إلى الخارج؟ - قالت أمى.

- لا أقول هذا - أجابت صديقة أمى.

كل الأطفال كانوا فى الغرفة، وكذلك الفتاة، وقالت المرأة صديقة أمى: ولكن هذا سوف يجرحنى بعض الشىء، إنه كبير بما يكفى!

ضحكت أمى، وضحكت هى مع أمى. الفتاة أيضا ضحكت.

- ولكننى أنا التى كبرته هكذا - قالت أمى. لا يجب أن تخجلى.

ألقت صديقة أمى بجسمها على الفراش.

- أظن أنك رأيت نساء كثيرات! - قالت.

رفعت الثوب من نفسها، وبينما كانت تنتظر أن تحقنها أمى قالت:

- يهيأ لى أنك رأيت من هن أكثر فتحا للشهية منى.

كان الأطفال يتقافزون من حولها، ولم تكن أمى جاهزة بعد لضرب الحقنة، وقالت: - هل تخافين من فتح شهيته؟

وضحكت، وضحكت الفتاة معها، وضحكت صديقة أمى فى الوسادة بينما كان الأطفال يتقافزون حولها وعلقت قائلة: أوه لا يا كونشتسيونى! أعرف جيدا أننى فى سن أمه.

عندئذ قلت: لا أرى أن هذا له قيمة...

كان لحم بدنها رخصا، وكنت أريد أن أهنئها على ذلك.

وصرخت هى: ماذا تقصد أن تقول؟

وصاحت أمى: هل تقصد أنها فتحت شهيتك؟

قلت أنا: - ولم لا؟

- أوه! - صاحت صديقة أمى وهى تضحك.

- أوه! - صاحت أمى وهى تضحك.

ضحكت الفتاة معهما وتم ضرب الحقنة. نهضت صديقة أمى لكى تتحدث معى، وهى تضحك، وتوجه إصبعا فى وجهى مهددة: هل تعرف ماذا تكون أنت؟ - قالت. إنك قليل الحياء.

ما أن خرجنا حتى قالت أمى:

- هل فتحت شهيتك بالفعل؟

- ولم لا؟ - أجبت أنا.

- أوه! - تعجبت أمى. وضحكت.

- امرأة أكبر منك بعشر سنين! - قالت.

وأردفت: والأرملة، هل فتحت شهيتك؟

- طبعا! - أجبت أنا. - بل فتحتها أكثر وأكثر...

- أوه! - صاحت والدتى.

ضحكت وقالت: لو عرفت ذلك ما تركتك تأتى.

ولكنها كانت مسرورة فى داخل نفسها، وظافرة بشكل ما أيضا، ووصلنا، من ذلك الشارع الصاعد، إلى ساحة مفتوحة على الوادى كله، وعلى الشمس التى كانت تغرب.

نظرت أمى للشمس ثم سألتنى:

- متى كانت أول مرة رأيت فيها شكل جسم المرأة؟

-٣١-

كانت موسيقى القرب لا تنقطع فى الفضاء الواسع البارد العاكس لضوء الشمس، وأصبحت حينئذ حية، لم تعد سحابة أو جليدا، بل قريبة جدا، وسمعنا فيها رنات جلاجل الماعز، تنطلق بملئها، ولم تعد مجرد طنين منتشر، كأن قطعان ماعز كثيرة تمر خلف المنازل.

- تسألين، متى كانت أول مرة؟ - سألت.

رحت أفكر، وأنا أحاول أن أتذكر حتى أجيب على أمى.

- نعم، متى كانت أول مرة ترى فيها كيف يكون جسم المرأة؟ - قالت أمى.

وحاولت أنا أن أتذكر. كنت سعيدا بأننى أتذكر، ولكن ذلك لم يكن سهلا.

- أعتقد أننى كنت طوال حياتى أعرف كيف يكون جسم المرأة - قلت.

- حتى وأنت فى سن العاشرة عندما كنت طفلا شقيا تقفز من القطار وهو يجرى؟ - سألت أمى متعجبة.

- نعم - قلت أنا. كنت أعرف جيدا شكل جسم المرأة، - قلت أنا.

- حتى وأنت فى السابعة من عمرك؟ - تعجبت أمى. حتى وأنت فى السابعة لا تعى شيئا وتجلس فى حجر صديقاتى؟

- أعتقد ذلك - قلت أنا. حتى وأنا فى السابعة. أين كنا عندما كنت أبلغ من العمر سبع سنوات؟

حسبت أمى حساباتها.

- كان أول أعوام الحرب - قالت. كنا فى تيرانوفا، كنا فى بيت من بيوت السكة الحديدية على بعد كيلومتر واحد من البلدة.

- فى تيرانوفا؟ - قلت أنا.

كنت قد قرأت ألف ليلة وليلة وكتبا كثيرة هناك، عن رحلات قديمة، وأنا فى سن السابعة وسن الثامنة والتاسعة، وكذلك هناك كانت صقلية، ألف ليلة وليلة وبلاد قديمة وأشجار وبيوت وأناس أزمنة غابرة من خلال الكتب. ثم نسيت ذلك خلال حياتى كرجل، ولكن كل شىء كان بداخلى، وكنت أستطيع أن أتذكره وأن أتعرف عليه! هنيئا لمن لديه ما يتعرف عليه!

إنه لمن حسن الحظ أن يقرأ المرء وهو صغير. ويتضاعف الحظ عندما تقرأ كتبا عن أزمنة قديمة وعن بلاد قديمة، كتب عن التاريخ وعن الرحلات وألف ليلة وليلة على نحو خاص. يستطيع المرء أن يتذكر أيضا ما قرأه كأنه عايشه على نحو ما، ويحمل بداخله تاريخ البشر والعالم كله، مع طفولته الخاصة به، بلاد فارس فى سن السابعة، وأستراليا فى سن الثامنة، وكندا فى سن التاسعة، والمكسيك فى العاشرة، وعبرانيِّى الكتاب المقدس وبرج بابل وداود

فى شتاء السنوات الست، والخلفاء وحريم السلطان فى فبراير أو سبتمبر، وفى الصيف الحروب الكبرى مع جوستافو أدولفو وغير ذلك بالنسبة لصقليةِ الأوروبية، فى تيرانوفا وسيراكوزا، بينما يحمل القطار الجنود كل ليلة لحرب كبرى هى كل الحروب معا.

حظيت أنا بذلك، بأن أقرأ كثيرا فى طفولتى، وفى تيرانوفا كانت صقلية تعنى أيضا بالنسبة لى بغداد وقصر الدموع وبستان النخيل. قرأت فيها ألف ليلة وليلة وغيرها، فى بيت كان مليئا بالآرائك وببنات أصدقاء أبى، وأتذكر عرى المرأة فيهن، مثل عرى حريم السلطان، والسرارى، عريا حقيقيا مؤكدا، وقلب العالم وعقله.

- نعم، كنت أعرف أكثر من أى وقت آخر كيف تكون المرأة وأنا فى سن السابعة - قلت.

- تعرف أكثر من أى وقت آخر؟ - قالت أمى.

- نعم أكثر من أى وقت آخر - قلت أنا. كنت أعرفه وكنت أراه. كان دائما ماثلا أمام عينى كيف تكون المرأة.

- ماذا تقصد؟ - صاحت أمى. هل كنت تفكر فيها؟

وقلت أنا: لا، لم أكن أفكر فيها، كنت أعرف وأرى. كان هذا هو كل ما فى الأمر. وهذا يكفى، أليس كذلك؟

- فيمن كنت تراه ؟ - سألت أمى.

وقلت أنا: - فى كل امرأة... كان طبيعيا جدا بالنسبة لى، لم يكن خبثا.

هكذا كان. لم يكن خبثا. ولكنها كانت المرأة على أية حال. فى سن السابعة لا يعرف الإنسان خبائث العالم، لا يعرف الألم، ولا

يعرف انعدام الأمل، ولا تثيره نوبات الغيظ المجرد، ولكنه يعرف المرأة. ليس على الأرض من يعرف المرأة مثل ذكر فى سن السادسة أو دونها، فهى ليست تسرية عن النفس أو نشوى أو حتى دعابة أمام ناظريه، وإنما هى يقين الحياة، خالدة لا تموت.

- ذات مرة وكنت فى السادسة من عمرى - حكيت لأمى - "مرضت صبية من أصدقائنا وماتت. كانت مثل مريضاتك، لا أعرف ما إذا كانت فخورة أم متواضعة، وواصلت أنا الذهاب إلى بيتها، وكثيرا ما كنت أجد نفسى لساعات طويلة إلى جوار سريرها. كنت أعرفها منذ وقت طويل. وكانت هى تلاعبنى، وتأخذنى على حجرها وكانت تغير قميصها أمامى. وفى أثناء مرضها كانت تأتيها امرأة كل يوم لتعطيها الحقنة، وكنت أنا هناك، كنت آراها كما رأيت الآن الأرملة وصديقتك. لم يكن الشىء نفسه بالطبع، فلم يكن هناك أى مجال لشهية. قالت لى ذات يوم: - سوف أموت!

- وماذا بعد؟ - قالت أمى.

- لا شىء - قلت أنا.

- كيف لا شىء؟ - استفسرت أمى. - كانت إحدى صديقاتنا من بيت آلادينو[1]، كانت فتاة جميلة...

- حقا كانت عائلة فيها بنات جميلة، أليس كذلك؟ - قلت أنا.

- نعم - حكت أمى. - كان أبوهن يذهب ويجىء من مالطا وإليها على مراكب نقل الكولوفونيا، وكن يتناوبن على الذهاب معه إلى

---

(١) الأصل العربى للاسم واضح وهو علاء الدين، وربما أراد الكاتب أن يذكر بالوجود العربى التاريخى فى صقلية باختياره هذا الاسم. (المراجع)

هناك. ثم بقيت واحدة منهن فى مالطة حيث تزوجت جواهريا، وتزوجت أخرى من سمسار. وماتت تلك الأخرى.

انتهت أمى من حكايتها وسألتنى:

- أليست هذه؟ كنت تتكلم عنها عندما ماتت...

- هذا هو ما قلت - أجبت. ماتت هى، وواصلت أنا الذهاب إلى ذلك البيت. كنت أنظر إلى أخواتها بدلا منها.

- ألم يحزنك موتها؟ - سألت أمى.

- لا أعرف - قلت أنا. كنت أرى الأخريات عرايا مثلها.. ولكننى ما عدت أجد مثل هذا الجمال - قلت.

- كيف؟ - تساءلت أمى. ألم تر نساء أجمل شكلا من بنات آلادينو؟

- أنا لا أقول هذا - قلت أنا.

- وزوجتك؟ - تعجبت أمى. ألم تصل زوجتك إلى مستوى بنات آلادينو؟ ما هذه الزوجة التى تزوجتها؟

- لا أقول هذا - قلت أنا.

- رأيت من النساء القليل جدا! - صاحت أمى.

- لا أقول هذا، - قلت للمرة الثالثة.

وقالت أمى:

- تعال، لنذهب الآن إلى الآنسة الفيرا. سوف ترى كيف يمكن أن يكون جمال شابة فى العشرين.

أسرعت الخطو، وبينما كانت تمشى أمامى بين الناس والماعز تحت الشمس الكبيرة الحمراء التى كانت تغرب، ووسط ثغاء المزمار وموسيقاه الجليلة - قالت أيضا:

- فكرت دائما فى أن أبنائى ربما لم يروا قط ما يماثل مشهد إعطائى الحقنة للآنسة الفيرا.

الجــزء الرابـع

- ٣٢ -

ولكن الضجر كان قد أصابنى من أولئك المرضى وتلك النساء، وعارضت أمى، وأردت ألا أذهب معها إلى تلك الآنسة.

وصلنا تحت العمارة، فى منتصف جبل البيوت، وقلت لها: أنتظرك هنا.

- ما هذه الحكاية؟ - صاحت أمى.

ثم استدارت نحوى لتضربنى مثل أية أم أحست بالإهانة، ولكنها وجدتنى رجلا فى الثلاثين من عمرى، ما عدت صبيا، وأكاد أكون غريبا عنها؛ فتكلمت وصاحت: يا لك من أبله! ولكننى انتصرت أنا، لأننى لم أكن أريد فى الحقيقة أن أصعد معها. توقفت عجلة الرحلة عندى، عند تلك اللحظة بالتحديد. أى هدف أحققه لو رأيت امرأة أخرى؟ أو أى مريض آخر، أى هدف؟ أى هدف لى؟ وأى هدف لهم؟

الموت والخلود كنت أعرفهما، وصقلية أو العالم يستويان عندى. نظرت إلى العمارة وفكرت فى المرأة التى بداخلها تنتظر متأهبة إبرة أمى، وعينى أنا، والرجل، ورفضت أن أتخيلها أكثر خلودا من

أى مريض أو مريضة أخرى، ورحت أجلس على حافة مصد عربة واقفة. أنتظرك هنا ـ قلت لأمى من جديد.

ثم وأنا أنتظر رأيت طائرة ورقية ترتفع إلى أعلى من الوادى، وتابعتها بعينى وهى تعبر من فوقى وفى النور عاليا، وسألت نفسى لماذا لا يستمر العالم كما كان فى سن السابعة، عالم ألف ليلة وليلة. كنت أسمع مزامير الرعاة وأجراس الماعز وأصواتًا عبر درج أسطح البيوت والوادى، وتكرر سؤالى لنفسى عدة مرات وأنا أنظر إلى الطائرة الورقية. كانت هذه الطائرة الورقية تسمى فى صقلية بالتنين الطائر، وكانت هى الصين وبلاد فارس المحلقة بسماء صقلية، كانت الزفير والأوبال وخطوط الهندسة، ولم أكن أستطيع إلا أن أسأل نفسى وأنا أنظر إليها لماذا لا يبقى على الدوام وأبدا إيمان سن السابعة عند الرجال.

أو ربما كان ذلك خطرا؟ فالصبى فى سن السابعة لديه المعجزات فى الأشياء كلها، ولديه اليقين، ومن تجردها، من المرأة، يتأكد له وجودها، كما أفترض أنها وهى ضلع من ضلوعنا ـ لديها اليقين نفسه منا. الموت موجود، ولكنه لا ينتزع شيئا من اليقين، وعلى ذلك فألف ليلة وليلة الإنسان لا تسبب أى ضرر للعالم. عندما يكون المرء صبيا، لا يطلب سوى ورق وريح، لا يحتاج إلا إلى إطلاق طائرة ورقية، يخرج ويطلقها، وما هى إلا صرخة ويطلقها، يحملها الصبى فى أجواء السماء بخيط طويل لا يرى، وهكذا يعيش إيمانه ويعلن يقينه. ولكن ماذا يمكنه أن يفعل بعد ذلك باليقين؟ بعد ذلك يعرف المرء المهانة التى تحيق بالعالم، والقسوة والعبودية، والظلم بين البشر، وانتزاع قدسية الحياة الأرضية عن الجنس

البشرى وعن العالم. ماذا يفعل عندها حتى وإن ظل يقينه ثابتا؟ ماذا عساه أن يفعل؟ يتساءل المرء. ماذا عساى أن أفعل؟ تساءلت أنا.

ومرت الطائرة الورقية وأدرت عينى عن السماء ورأيت سنَّان السكاكين وقد توقف أمام العمارة.

ـ ٣٣ ـ

كان الشارع ممتلئا بالشمس، مفتوحا على الوادى، والسنان يلمع من كل نقطة فيه وفى عجلة مسنّه كنت أراه أسود بعينى التى بهرها الضوء.

- أسن السكاكين، أسن المقصات! ـ كان يصيح على نوافذ العمارة. بح صوته ولا مجيب كأنه الطير ينقر الزجاج والحصى ليقتات، ولاحظت أنه يشبه بالفعل طائرا بريا، وهو يرتدى على رأسه قبعة من تلك التى نراها فى الحقول على رأس خيال المآتة. صاح قائلا: ليس هناك ما يسن!

بدا أنه يخاطبنى أنا، فتركت مصد العربة، واقتربت من صوته عابرا الشارع.

- أقول لك أنت يا غريب - صاح.

كانت ساقاه طويلتين بلا شعر، وكان يبدو مثل طير بالعش، وهو يقف إلى حامل مسنه، ويحرك العجلة للأمام والخلف على سبيل التجربة. هل جئت معك بأى شىء يمكن سَنُّه فى هذه البلد؟ - صاح.

كانت عجلة الرحلة قد أخذت طريقها لتدور بداخلى، وهكذا بدأت أفتش فى جيوبى، فى أحدها أولا، ثم فى الآخر، وبينما كنت أذهب إلى الجيب الثالث واصل السنان كلامه: أليس معك سيف تسنه؟ أليس معك مدفع تسنه؟

أخرجت من جيبى مطواة، وخطفها الرجل من يدى، وبدأ فى سرعة يسنها، وكان ينظر إلىّ أسود الوجه كأن الدخان غطاه.

وسألته: ألم تجد ما تسنه فى هذه البلد؟

- ليس ممعا يستحق كثيرا - أجاب السنان. وكان يستمر فى النظر إلى وأصابعه تراقص المطواة الصغيرة على عجلة المسن، وكان الرجل يضحك، كان شابا، خفيف الظل، بجسمه النحيف وتحت غطاء رأس خيال المآتة ذاك.

- ليس مما يستحق كثيرا - قال. ليس ما يستحق العناء. ليس ما يعجب.

- هل تشحذون السكاكين جيدا، هل تشحذون المقصات جيدا - قلت أنا.

وقال السنان: سكاكين؟ مقصات؟ وهل تعتقد أنه لا يزال فى هذا العالم سكاكين ومقصات؟

وقلت أنا: كنت أظن ذلك. ألا توجد سكاكين ومقصات فى هذا البلد؟

كانت عينا السنان تلمع مثل بياض السكاكين وهو ينظر إلى، ومن فمه الفاغر فى وجهه الأسود كان صوته ينطلق مشروخا قليلا، بنبرة هازئة. ـ لا فى مثل هذا البلد، ولا فى غيرها - صرخ، أنا

أتجول فى بلاد عديدة، ومن ثم فإن عدد من أسن له يبلغ الخمسة عشر أو العشرين ألف نفس، ومع ذلك لم أر قط سكاكين، ولم أر قط مقصات.

قلت أنا: ولكن ما الذى يعطونك لكى تسنه إن لم تكن ترى سكاكين ولا مقصات أبدا؟

وقال السنان: هذا ما أسأله دائما لهم. ما الذى تعطونى لكى أسن؟ ألا تعطونى سيفا؟ ألا تعطونى مدفعا؟ وأنظر إليهم فى وجوههم، وفى عيونهم، وأرى أن ما يعطونه لى لا يستحق حتى أن يسمى مسمارا.

صمت، حينذاك، وكف أيضا عن النظر لى؛ وانحنى على العجلة، وسارع البدال، وسن بحنق وبتركيز شديد لمدة دقيقة. وأخيرا قال: - إنه مما يعجب أن تسن نصلا حقيقيا. أنت ترميه فيصبح رمحا، وتستطيع أن تمسك به فيصبح سلاحا أبيض. آه لو كان لدى الجميع نصل حقيقى!

- سألته: لماذا؟ هل تعتقد أنه سوف يحدث شىء ما؟

- أوه، إننى أحب أن أسن دائما نصلا حقيقيا! - أجاب السنان.

عاد ليلف عجلته بتركيز حانق لعدة ثوان، ثم أبطأ، وأضاف هامسا: يبدو لى فى بعض الأحيان أنه يكفى أن يكون لدى الجميع أنياب وأظافر يمكن شحذها. سوف أشحذها كأنها أسنان أفعى، كمخالب فهد...

نظر إلىّ وغمز بعينه، لمعت عيناه واسود وجهه، وقال: - ها! ها!

- ها! ها! قلت أنا وغمزت بعينى له.

أما هو فمال على أذنى وحدثنى فى أذنى. وسمعت أنا كلماته فى أذنى، وأنا أضحك "ها! ها!"، وتحدثت فى أذنه، وكنا اثنين يتحادثان فى الأذن ويضحكان ونخبط بأيدينا على الأكتاف.

ـ ٣٤ ـ

ثم أعطانى السنان شفرتى، وقد سُنَّت كأنها سهم وخنجر وسألته عن الثمن، فقال لى: إنه أربعون سنتا، فأخرجت له أربع قطع معدنية كل منها عشرة سنتيمات ووضعتها على العارضة التى توجد فوق حامل المسن.

فتح درجا، ورأيت أنه كان مقسما ثلاثة أقسام بعملات من العشرين والعشرة فى كل منها، بمجموع ربما يصل إلى خمس ليرات أو ست. قلت أنا:

- اليوم يوم شحيح!

ولكنه لم يكن ينصت لى، ولاحظت أنه كان يحرك شفتيه ويغمغم. كان غارقا فى التفكير وهو يحرك العملات بين يديه، وشيئا فشيئا أصبحت غمغمته أكثر وضوحا. أربعة للخبز - سمعته يقول. ـ أربعة للنبيذ... ثم فجأة: والرجل ذو الشوارب؟

ثم بدأ من جديد بوضوح أكبر: أربعة لذى الشوارب. أربعة للخبز... وفجأة: والنبيذ؟

وبوضوح أكبر وأكبر يبدأ من جديد: أربعة للنبيذ، أربعة لذى الشوارب... ثم فجأة: والخبز؟

عندئذ قلت له أنا: لماذا لا تضعها كلها معا ثم تقسم بعد ذلك؟

- خطر جدا - قال السنان. قد أرغب أحيانا فى صرفها كلها فى الأكل، وأحيانا أخرى أنفقها فى الشراب... هرش عنقه، وأعاد لى عشرة سنتيمات، وهو ينظر إلى السماء. امسك، - قال. كنت أريد أن آخذ منك عشرة سنتيمات زيادة ولكن الله لا يشاء ذلك. إن هذه السنتيمات الزائدة هى التى عملت كل هذا الاضطراب.

أعدت أنا السنتيمات العشرة إلى جيبى وأنا أضحك، أما هو فقد أعاد عينيه من السماء إلى الأرض، ثم أعاد توزيع قطع النقود الثلاثة راضيا فى درجه بأقسامه الثلاثة.

- اثنان للخبز، واثنان للنبيذ، واثنان لذى الشوارب - قال.

ثم حرك يديه الخاليتين وأمسك بدولابه من قائمته وانطلق بالطريق الصاعد، والتى كادت تنتهى من الغروب.

لم أتردد فى متابعته. هل سوف تصعد إلى أعلى - قلت. سوف آتى معك.

ولكن رغم أنه كان راضيا بحل المشكلة، فقد كف عن مرحه، بل كان حزينا، ولم يكن يتكلم. كان يسير وهو ينظر فى الهواء، وهو يهز من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين رأسه التى تغطيها قبعة خيال المآتة. وكان فى مجمله يقارب خيال المآتة، بوجهه المسود، وعينيه اللامعتين، وفمه الكبير الذى يختص به النحفاء،

وسترته المليئة بالرقع، وسرواله المهلهل، وحذائه المتهالك، وعظامه البارزة فى ساقيه الجافتين الطويلتين ومرفقيه.

- لا بد أن تعذرنى، - قال فجأة. ظننت أننى أستطيع أن أفعل هذا لأنك غريب.

- أوه، لا شىء على الإطلاق - قلت أنا. صولدان[1] بالزيادة أو بالنقصان...

وقال هو: المسألة هى أن المرء لا يعرف كيف ينظم أمره مع الغرباء. ربما كان هناك سنانون يطلبون ثمانية سنتيمات فى بلاد أخرى، وربما ضرهم المرء بأن يطلب ستة فقط، ألا يبدو لك هذا معقولا؟

اطمأن هو قليلا، وشعرت أنا بالمتعة، وقطعنا شوطا آخر من الطريق، وكانت الشمس قد غربت، من أعلى البيوت أخذ يهبط صوت أجراس الماعز. ثم تنحنح السنان لكى يجلو حنجرته: - الدنيا جميلة. وجلوت صوتى أنا أيضا وقلت: - أتصور ذلك.

وقال السنان: نور، ظل، برد، حر، فرح، لا فرح...

وقلت أنا: رجاء ، محبة...

وقال السنان: طفولة، شباب، شيخوخة...

وقلت أنا: رجال، أطفال، نساء.

وقال السنان: نساء جميلات، نساء قبيحات، هبات من الله، مكر، وصدق...

---

(١) الصولد: عملة نحاسية، صغيرة القيمة كانت تستخدم فى الماضى (المرجع).

وقلت أنا: ذاكرة، خيال.

- ماذا يعنى هذا؟ - تعجب السنان.

- لا شىء - قلت أنا. خبز ونبيذ.

وقال السنان: - نقانق، لبن، ماعز، خنزير، بقر... فئران.

وقلت أنا: - دببة، ذئاب.

وقال السنان: طيور، أشجار، دخان... جليد...

وقلت أنا: أمراض، شفاء. نعم أعرف. أعرف. موت وخلود وبعث.

- آه! ـ صاح السنان.

- ماذا هناك؟ - قلت أنا.

- رائع - قال السنان. آه! أوه! إيه! ياه! أواه!

وقلت أنا: - أظن ذلك!

وقال السنان: إهانة العالم شر كبير.

ولم أقل أنا شيئا آخر، ووجدت نفسى فى الأفكار نفسها التى كانت عندى قبل أن أقابله، عندما مرت فوقى الطائرة الورقية، كما لو أنه كان هو ذاته تلك الطائرة الورقية. أخذت أنظر إليه، وتوقفت، وتوقف هو أيضا، وسألنى: عذرا، لو عرف المرء واحدا أسعده جدا معرفته، ثم يأخذ صولدا أو اثنين أزيد مما يلزم مقابل خدمة كان عليه أن يقدمها مجانا، نظرا للسعادة الكبيرة التى سمح له بها بمعرفته، فماذا يكون هذا المرء، إنسان من العالم، أم إنسان يهين العالم؟

أخذت أضحك. أوه ـ ضحكت. وكان ذلك طبيعيا.

وسأل هو: أما يهين العالم؟ أم هو من العالم؟ وينتمى إلى العالم؟

- أوه! - ضحكت أنا، ضحكة هادئة؛ لأنه كان طبيعيا.

وضحك هو: - آه!

نزع القبعة وحيانى ـ شكرا يا صديقى، - قال.

وضحك من جديد: - آه!

وضحكت من جديد: - أوه! وقال هو: أحيانا ما يخلط المرء بين صغائر أمور العالم مع إهانات العالم.

ثم بدأ يكلمنى فى أذنى: آه لو كانت هناك سكاكين ومقصات...

وكلمنى فى أذنى، دقيقة أو دقيقتين، ولكننى لم أتكلم فى أذنه، فقد خلته حينئذ طائرتى الورقية التى تكلمنى.

ـ ٣٥ ـ

وصلنا إلى نقطة عالية جدا من البلدة، إلى ما يشبه الميدان، وكانت الشمس قد غابت، ولم تعد هناك أجراس ماعز ولا مزامير قرب، لم تكن أمى هناك، ولا النساء هناك، وأشار لى السنان إلى دكان.

هل تريد أن تعرف واحدا لديه مخرازـ؟ - سألنى.

كان رأس حصان من الخشب المطلى يعلو القوس الحجرى بالدكان، وعلى جانبى المدخل، وعلى قائمتى الباب وعلى ضلفتيه المفتوحتين ذاتهما رأيت حبالا وجلودا وشرائط وأجراسًا صغيرة وريشًا متعدد الألوان.

ترك السنان دولابه فى الميدان ثم وثب أمامى على العتبة وأدخلنى الدكان. إزكييلى[1]! ـ صاح. ـ إزكييلى!

كان بالداخل ممر طويل، نهايته معتمة، به حبال وجلود وشرائط وأجراس ورياش وألجمة وسياط وسرج وجميع أنواع زينة الركائب

(١) لا يخفى على القارئ هدف الكاتب من استخدام هذا الاسم، والذى يذكرنا بشخصية كتابية، هى شخصية حزقيل النبى الذى تكلم عن شعبه أثناء محنته (المرجع).

وتجهيزاتها، وكلها معلقة كما كان الحال فى الخارج، وعلى الجدارين، بل كان منها ما هو معلق بالسقف أيضا.

إزكييلى! ـ صاح السنان من جديد ونحن نتقدم.

وصل أحدهم من خلفنا جريا، فارتطم بنا بلطف، وتجاوزنا، ثم انفجر صوت صبى:

- إنه كالوجيرو يا خال إزكييلى!

واصلنا نحن التقدم فى الممر الضيق بين زينة الخيل وتجهيزاتها والسرج والألجمة والسياط وما إلى ذلك، وكنا نتحسس طريقنا فى عتمة تامة، وقد نزلنا فى قلب صقلية الأصيل. كانت الرائحة طيبة، فى قلبنا ذاك، كانت رائحة تفوح من الحبال والجلود التى لم نكن نراها، وكأنها تراب جديد، تربة أرض، ولكنها أرض لم تتلوث بعد بإهانات العالم التى تجرى على الأرض. آه، فكرت أنا، آه لو كنت أومن حقا بذلك... لم يكن الأمر كما لو أننى ذاهب تحت الأرض، وإنما محلق فى مسار الطائرة الورقية، وقد ظلت الطائرة الورقية ماثلة أمام عينى، وما كان هناك شىء آخر آراه، وأنا فى تلك العتمة، وبداخلى قلب الطفولة، الصقلى، قلب العالم كله.

ولكن فى النهاية لمحنا أمامنا ضوءًا خافتًا، ثم أصبح الضوء الخافت مبهرا، واتخذ أحد الرجال شكلا، وكان يجلس إلى طاولة صغيرة عليها ألجمة وسياط وظلال لألجمة وسياط تتدلى فوق رأسه.

- إزكييلى! ـ نادِ السنان.

التفت الرجل وبدا وجهه سمينًا، وعيناه الصغيرتان تلمعان وكأنهما تقولان: "نعم يا صديقى، العالم مهان، ولكن ليس هنا بالداخل". وسأل بصوت متناغم: "هل تريد المخراز يا كالوجيرو؟"

عندئذ رآنى، فاتسعت عيناه الصغيرتان وأصبحتا قلقتين، حتى قال السنان، طائرتى الورقية: لا يلزمنى هذا المساء يا إزكييلى. وجدت هذا الصديق الذى لديه شفرة.

- آه، هل هذا حقيقى؟ سأل الرجل، ونهض على قدميه بقامته القصيرة والسمنة تعم جسده كله، خصلات شعره الشقراء المموجة ونغزات وجنتيه وعينيه الصغيرة عادت إليها الحيوية كأنها تقولان من جديد: "العالم مهان ولكن ليس هنا بالداخل".

بحث، ربما عن مقاعد، تحت ستائر الحبال والشرائط والجلود وآثار صخب الأجراس فى كل مكان، ثم عاد يجلس دون أن يجد شيئا أو ينتهى إلى شىء.

- قل له إن هذا يسعدنى جدا - قال للسنان.

كان ثمة سلم خشبى إلى جوار الطاولة يختفى بين التجهيزات المعلقة من السقف، واستند السنان بيده عليه. هو أيضا يسعده جدا - أجاب.

- يسعدنى جدا - قلت أنا.

تفحصنى الرجل باسما واثقا من نفسه، من أن ذلك يسعدنى، ولكن لأن السنان هو الذى قال ذلك، ولم أكن أنا الذى قلته. لم يكن من السنان إلا أن واصل الكلام. أرى ذلك واضحا - قال وهو لا يزال يفحصنى.

- رأيت ذلك على الفور - أجاب السنان. ليس هناك ما يدعو للانخداع.

وقال الرجل إزكييلى: لا، لا يوجد ما يدعو للانخداع.

وقال السنان: إنه يعانى.

وقال الرجل إزكييلى: نعم. يعانى.

وقال السنان: من أجل العالم المهان يعانى. ليس من أجل نفسه.

وقال الرجل إزكييلى: ليس من أجل نفسه، هذا مفهوم. كل واحد يعانى من أجل نفسه ومع ذلك...

وقال السنان: ومع ذلك ليست هناك سكاكين ولا مقصات، ليس هناك شيء أبدا...

وقال الرجل إزكييلى: لا شيء، لا أحد يعرف أى شيء، ولا أحد يلحظ أى شيء...

صمتا، وتبادلا النظر، وامتلأت عينا الرجل إزكييلى بالحزن، والتمعت عينا السنان بأقصى ما يمكن من بياض براق، كأن الرعب يكاد يملؤهما، فى وجهه الأسمر.

- آه - قال السنان.

- آه، قال الرجل إزكييلى.

واقترب أحدهما من الآخر، فوق الطاولة الصغيرة، وتبادلا الحديث فى أذنيهما، ثم قال السنان وهو يتراجع إلى الخلف: ولكن صديقنا معه شفرة صغيرة. إنه من أجل العالم المهان يعانى.

- نعم - قال الرجل إزكييلى. وراح ينظر إلىّ. وكانت عيناه الصغيرتان تلمعان وكأنهما تقولان: "العالم مهان جدا، جدا جدا، مهان جدا، مهان أكثر مما نعرف نحن أنفسنا".

ثم التفت مرة أخرى لكى ينظر إلى السنان.

- هل أخبرته كيف نعانى نحن؟ - سأله.

- كنت قد بدأت أخبره - أجاب السنان.

- حسنا، قل له إننا لا نعانى من أجل أنفسنا. طلب منه إزيكييلى.

- يعرف هذا - أجاب السنان.

وقال الرجل إزكييلى: - قل له إننا ليس لدينا ما نعانى من أجله، لا مصائب على كواهلنا، ولا جوع، ومع ذلك نعانى كثيرا، أوه! كثيرا.

وقال السنان: يعرف، يعرف!

وقال الرجل إزكييلى: اسأله إن كان حقا يعرف.

وقال لى السنان: هل تعرف حقا؟

رددت بالإيجاب بإشارة من رأسى. نهض الرجل إزكييلى وصفق بيديه مناديا: أكيللى يا ابن أختى!

ومن بين التجهيزات المزدحمة أطل أكيللى، ذلك الصبى الذى اصطدم بنا فى الممر. قال له الرجل إزكييلى: لماذا لا تجلس هنا وتسمع كلامنا؟

كان الصبى صغيرا جدا، له خصلات شعر شقراء مموجة مثل خاله. كنت أسمع يا خالى إزكييلى - قال الصبى.

وافقه الرجل إزكييلى والتفت من جديد نحو السنان.

- إذا فصديقك يعرف أننا نعانى من أجل العالم المهان.

- يعرف! ـ قال السنان.

راح الرجل إزكييلى يعيد تلخيص ما قيل: العالم كبير وجميل، ولكنه مهان جدا. الجميع يعانون، كل لحاله، ولكنهم لا يعانون من أجل العالم المهان، وهكذا يظل العالم مهانا.

كان ينظر حوله، وأغلقت عيناه الصغيرتان على الحزن، ثم عادتا تبحثان بحيوية عن السنان، وقال له: هل قلت لصديقك إننى أكتب عن آلام العالم المهان؟

كان هناك بالفعل ما يشبه الدفتر على الطاولة الصغيرة، ومحبرة وقلم.

- هل قلت له يا كالوجيرو؟ - قال.

أجاب السنان: كنت فى سبيلى أن أقول له.

وقال هو: - حسنا، يمكنك أن تقول هذا لصديقنا. قل له: إننى مثل الزاهد القديم أقضى أيامى هنا على هذه الأوراق أكتب تاريخ العالم المهان. قل له: إننى أعانى ولكنى أكتب، وأكتب عن جميع الإهانات، واحدة واحدة، وكذلك عن جميع الوجوه المعتدية التى تضحك للإهانات التى ارتكبت وسوف ترتكب.

- سكاكين ومقصات وخناجر - صاح السنان.

ووضع الرجل إزكييلى يده على رأس الصبى وأشار نحوى. هل ترى صديقنا هذا؟ - قال. إنه مثل خالك يعانى من ألم العالم المهان. تعلم يا ابن أختى أكيللى، والآن اهتم أنت بالمحل فأنا ذاهب مع كالوجيرو ومعه لكى نشرب كوبا من النبيذ عند كولمبو.

- ٣٦ -

هكذا خرجنا إلى الهواء الطلق، وكانت العتمة قد أطلت، كما كانت أجراس صلاة المساء تدق.

تناول السنان عارضته المتنقلة من قائمتها وبدأ يدفعها أمامه، ويسير، وأسير أنا معه، والرجل إزكييلى يسير بيننا، قصيرا بخطوات قصيرة، ملفوفا فى شملة.

"مهان العالم جدا! العالم مهان جدا" كانت عيناه تقولان ذلك وهما تنظران من حوله بحزن. ثم تركزت على الطاولة الدوارة للسنان.

- ماذا لديك على المسن يا كالوجيرو؟ - سأل وهو يتوقف.

- إنها ورقة، - قلت أنا.

وأطلق السنان صيحة. يا للشيطان الخنزير- صاح مرة أخرى!

- أهى غرامة مرة أخرى؟ - سأل الرجل إزكييلى.

وصاح السنان: مرة أخرى!

رفع ذراعيه نحو السماء، انطلق فى قفزات غريبة فى الهواء،

وعض يديه، وخلع قبعته التى تشبه قبعة خيال المآتة وألقاها على الأرض. ـ أهكذا؟!... أهكذا؟!... ـ كان يقول.

- إنها المرة الثالثة فى شهر واحد! ـ صرخ. مقصات، مخارز، سكاكين، حراب وبنادق، مناجل ومطارق، مدافع، ديناميت، ومائة ألف فولت...

عندئذ أتى إزكييلى بحركة تشبه يسوع عندما أوقف الشمس.

وتوقف السنان.

- يا صديقى - قال الرجل إزكييلى.

- نعم يا صديقى، - أجاب السنان.

- يا صديقى: لماذا نعانى نحن؟ - سأل الرجل إزكييلى.

- لماذا؟ - أجاب السنان. لأجل الجنس البشرى المهان.

وقال الرجل إزكييلى:

- ليس من أجلنا نحن إذاً. من أجل العالم المهان نعانى. ليس من أجلنا نحن أنفسنا...

وقال السنان: ليس من أجلنا نحن أنفسنا. هذا مفهوم.

وصمت، وعاد إلى الإمساك بقائمتى عجلته الدوارة، ثم استأنف دفعها، فعدنا جميعا إلى التحرك معه.

ثم غمغم: ـ ولكن من أين لى أن أنفق؟

بدا أنه سمع شيئا مقلقا، فتوقف من جديد، وهز دولابه وهو ينصت.

- لا أسمع صوت النقود - قال.

كان الظلام يكاد يكتمل، وأصبح الجو شديد الدكنة، وكانت عيناه تشتعلان كأنهما شق سكين أبيض فى سواد الوجه. فتح الدرج ونظر بداخله، وفتح أكثر، وأخرج الدرج كله، وقلبه. لم يسقط منه شىء وقال الرجل إزكييلى:

- تذكر أننا لا نعانى من أجلنا نحن أنفسنا ولكن من أجل ألم العالم المهان.

- أتذكر هذا - غمغم السنان.

وسأل الرجل إزكييلى:

- كم كان فى الدرج؟

وأجاب السنان: كان هناك خبز، وكان هناك نبيذ، وكانت هناك ضرائب، ليرتان وثلاثون، ليرتان وثلاثون، ليرتان وثلاثون، كان يوماً طيباً جدًا.

- حسنا، ـ قال الرجل إزكييلى ـ النبيذ سوف تتناوله معى الآن، عند كولمبو، والخبز سوف أعطيه لك من مائدتى هذا المساء إن سمحت لى...

- نعم ـ واصل السنان كلامه ـ ورأسى تغطيه قبعة جدى المبجلة، وكتفى تحميها سترة والدى المباركة، وعورتى يسترها سروال القس أوراتسيو المبارك، وقدمى... الشفقة كثيرة بين البشر، الشفقة كثيرة، والسقف عندى فى المنزل تدفئه بقرات جونزاليس. لماذا يعمل المرء فى ثلاثة أعمال؟ لكى يعيش على الإحسان كما قال الناصرى....[1].

---

(١) لقب من الألقاب التى عرف بها السيد المسيح نسبة إلى الناصرة التى أقام بها زمنا، وهى من قرى الجليل. (المراجع).

- ولكن يا ولدى ـ قل الرجل إزكيبلى ـ اعتبر أن نقودك قد أخذها عابر سبيل فقير... ربما لم يكن قد أكل أو شرب منذ وقت طويل. ليس عليك سوى أن تكون سعيدا بأنك أطعمته وسقيته.

ظل السنان دون كلام، واستأنف دفعه لدولابه، وكان يتنهد وهو يمشى. ثم تكلم وهو يمشى.

- صحيح! ـ قال ـ صحيح! ليست هذه هى الإهانات الموجهة للعالم والتى ينبغى أن نعانى من أجلها. هذه ليست سوى صغائر بين رجال العالم الفقراء. آه، سكاكين! آه، مقصات! هناك شىء آخر مختلف تماما يهين العالم!

- مختلف تماما! ـ تمتم الرجل إزكيبلى.

- مختلف تماما! مختلف تماما! ـ صاح السنان. والصغائر ليست إلا صغائر، مزاح بسيط بين إنسان وإنسان داخل دائرة العالم! من لم يمزح مزحة صغيرة مع أحد من أمثاله فليرمنى بأول حجر... أنا نفسى لعبت اللعبة نفسها هذا الصباح مع صديقنا!

- آه، حقا؟ - صاح الرجل إزكيبلى بالسؤال وضحك.

ضحكت أنا أيضا، وحكى هو حكاية الخدعة، وأخذنا نضحك ثلاثتنا كما يضحك الأطفال الأصحاب. ـ ومع ذلك كان بوسع عابر السبيل الفقير هذا أن يترك لى على الأقل نقود الضرائب - قال السنان.

هنا توقف عن الضحك، وتفجر الشرر من عينيه مثل بياض السكاكين.

- آه، مخارز! صرخ يقول، وماذا إذا كان عابر السبيل هذا هو نفسه الشرطى وصائد الكلاب الضالة الذى حرر لى المخالفة؟

ليست هذه هى المرة الأولى التى تضيع فيها غلة اليوم فى الوقت الذى تظهر فيه ورقة المخالفة.

أمسك إزكييلى بذراعه وأوقفه. مصادفة! ـ قال. ليست من هذا النوع إهانات العالم التى نعانى من أجلها.

ـ ٣٧ ـ

كان الجو البارد صافيا، وكفت الأجراس عن أن تحلق فى الهواء، كانت ساكنة فى أعشاشها. ولكن كان لا يزال من الممكن تمييز ألوان الأشياء فى الشارع الصغير، وأنا رأيت، وصرخت:

ـ انظروا! راية!

ـ راية؟ ـ قال السنان.

وقال الرجل إزكييلى: ـ أية راية؟

ـ على ذلك الباب ـ قلت أنا.

وقال الرجل إزكييلى: ـ ولكنه بورفيريو، القماش!

ضحك رفيقاى، وتذكرت أنا العادة الجارية فى صقلية بالإشارة إلى محلات الأقمشة بوضع قطعة قماش معلقة خارج بابها. لا يهم من أى لون تكون. قد تكون خضراء، أو ربما صفراء، أو زرقاء. متى ما وجدت قطعة قماش لابد أن يوجد محل القماش، حيث تباع الأقمشة. هناك كانت قطعة القماش حمراء وقال لى السنان: ولكن بورفيريو لديه مقص.

- آه، صحيح؟ - قلت أنا.

- نعم - قال السنان - فى بعض الأحيان عندما أحس بأننى أثقلت على إزكييلى فى طلب المخراز أطلب المقص من بورفيريو.

وهنا اقترح إزكييلى: ربما حان الوقت لأن نعرف بورفيريو بصديقنا.

- ربما - قال السنان.

أدخلانى، وظل دولاب السنان فى الشارع من جديد. ولكن الدكان لم يكن عميقا، كان مما يشبه التجويف، حيث الأقمشة مرصوصة فى أكوام فوق بعضها، فوق عدد من المقاعد القريبة كلها من الباب.

- تفضلوا بالدخول - دعا صوت واضح من داخل الدكان المعتم.

- مساء الخير - ألقوا التحية. مساء الخير.

وأردف الصوت: - مساء الخير، كنت على وشك أن أغلق الدكان.

- والقماشة هل كنت لتركتها فى الخارج؟ - سأل السنان.

- لا، كنت سأسحبها الآن - أجاب الصوت.

وقال الرجل إزكييلى: حمراء اليوم أيضا.

وقال الصوت: نعم، منذ وقت وأنا أضع اللون الأحمر. ولكن فى الغد سوف أغير إلى اللون الأزرق.

وقال الرجل إزكييلى: مؤكدا! العالم متنوع!

وقال الصوت: متنوع! جميل! عظيم!

- ومهان جدا، مهان جدا! ـ تمتم الرجل إزكييلى.

وعندئذ قال السنان: حدثه عن صديقنا يا إزكييلى.

- أى صديق؟ - سأل الصوت.

تحركت كتلة شخص خلف ذلك الصوت، فى العتمة، وبدا أن العتمة كلها تتحرك: كانت عتمة عملاقة. ومن الرجل الضخم، الذى اقترب منى عند بقعة الضوء الموجودة عند الباب، انبعث صوت جميل ساخن سأل من جديد: أى صديق؟ هذا السيد؟

- هذا السيد، أجاب الرجل إزكييلى. إنه مثلك يا بورفيريو، ومثل كالوجيرو السنان، ومثل كثير من الآخرين على وجه الأرض، واحد من الذين يعانون لآلام العالم المهان.

- آه! ـ قال الرجل الضخم.

اقترب منى أكثر فانطلق نسيم دافئ من أنفاسه، عبث بشرعى على جبهتى. آه! ـ تعجب مرة أخرى.

أنزل يده العريضة من علٍ وبحث عن يدى وصافحها مصافحة، ومع ذلك كانت مصافحة لطيفة. هذا من دواعى إعجابى - قال من فوق رأسى. وقال موجها كلامه للآخرين:

- هل قلتم إنه "يعانى"؟

كانت أنفاسه مثل الرياح الشرقية الساخنة داخل شعرى، وهو لا يزال يشد على يدى شدا ودودا، ردد الرجل: - هذا من دواعى إعجابى...

- عفوا - قلت أنا ـ ليس هناك ما يستحق!

- أوه! ـ قال الرجل. بل هناك الكثير مما يستحق. إنه شرف كبير لى!

وقلت أنا: بل الشرف لى.

وقال الرجل: لا، الشرف كله لى يا سيدى، ومن جديد التفت نحو الآخرين وشعرى ما يزال يتطاير تحت وطأة أنفاسه وسأل من جديد: إنه يعانى إذاً؟

- نعم يا بورفيريو - أجاب الرجل إزكييلى. يعانى، ولكن ليس من أجل نفسه.

- ليس من أجل صغائر العالم - شرح السنان. ليس لأنهم حرروا له مخالفة، ليس لأنه حاول أن يلعب مزحة صغيرة مع مثيل له...

- لا - قال الرجل إزكييلى. ـ إنه يعانى من أجل ألم الجميع .

وقال السنان: لألم العالم المهان.

فى الظلام كان الرجل الضخم بورفيريو يلمس رأسى تارة ووجهى تارة، وتعجب من جديد: آه! - ثم قال: - أفهم ذلك وأقدره.

عندئذ صاح السنان: - مقصات وسكاكين!

- مقصات؟ - ردد الرجل الضخم بصوت خافت. كان عبارة عن كتلة من العتمة، له رائحة تنبعث منها حرارة تجول بيننا وكأنها تيار الخير الآتى من الخليج وعلى قمته ريح وبصوت عذب عميق ـ سكاكين؟ - ردد. ثم قال بهدوء وعمق: لا يا أصدقائى، لا سكاكين ولا مقصات، لا يلزم أى شىء من هذا كله، وإنما ماء حى...

- ماء حى؟ - تمتم السنان.

- ماء حى؟ تمتم أيضا الرجل إزكييلى.

وواصل الرجل بورفيريو كلامه: لقد قلت لكم هذا ألف مرة، وها أنا ذا أقوله لكم من جديد. الماء الحى فقط هو الذى بوسعه أن يمسح الإهانة عن العالم أن يروى ظمأ الجنس البشرى المهان. ولكن أين هو الماء الحى؟

- حيث توجد السكاكين يوجد الماء الحى - قال السنان.

- حيث يوجد ألم العالم يوجد الماء الحى - قال إزكييلى الرجل.

كنا قد بلغنا فى جوف الليل، وخفتت الأصوات، ولم يعد فى وسع أحد أن يسمعنا. كنا قريبين من بعضنا، رؤوسنا قريبة من بعضها البعض، والرجل بورفيريو كان كأنه كلب القديس برنارد الضخم الذى يجمع الجميع ونفسه فى دفء وبره. تحدث طويلا عن الماء الحى، وتحدث الرجل إزكييلى، وتحدث السنان، وكانت الكلمات ليلا بالليل، وكنا نحن ظلالا، وخلت أننى دخلت فى زمرة أشباح. ثم عاد صوت بورفيريو عاليا: هيا بنا. أدعوكم إلى كأس نبيذ عند كولومبو، - قال. ثم أنزل القماشة المعلقة على الباب، وأغلقه، ليقودنا فى الطريق يشملنا تياره الساخن.

ـ ٣٨ ـ

فى الداخل فقط عند كولومبو اتخذ الرجل ملامحه ولونه. ظهر فى قامة طولها متران، وعرض متر، يرتدى فراء داكنا من الصوف ورأسه مليئة بالشعر، شعرة بيضاء وبجوارها أخرى سوداء، وعيناه زرقاوان، ولحيتة كستنائية ويداه حمراوان: كان حقيقة كلب سان برناردو ذا النظرة السخية.

- متعت بالعافية يا كولومبو! ـ قال وهو يدخل.

حتى دولاب السنان دخل معنا، وكان المحل مضاء بمصابيح الجاز وكان هناك رجال يغنون: "ودماء القديسة بومبيلا".

كأن كولومبو الجالس خلف طاولة البار رجلا يربط منديلا أصفر اللون حول رأسه على طريقة القراصنة.

- مرحبا - أجاب.

وقال الرجل إزكييلى: نبيذ. هذان السيدان ضيفاى.

- ضيفاك؟ - اعترض الرجل بورفيريو بلطف. أنا دعوت الجميع.

كان الرجال الذين يغنون يجلسون على أريكة بمحاذاة الجدار دون أن تكون هناك مائدة أمامهم، وكانوا يمسكون بأكواب صغيرة من الحديد فى أيديهم، وكانوا يغنون وهم يحركون رؤوسهم وجذوعهم بحركة تلقائية. ولكننى دعوتهم قبلك - شرح إزكييلى.

- ها هو النبيذ - قال كولومبو، ووضع على الطاولة أربعة أقداح مليئة. ثم أضاف مبتسما: هذه من عند السيد إزكييلى، ثم بعد ذلك يمكن أن يأتى ما هو من عند السيد بورفيريو.

- بالطبع! قال الرجل إزكييلى.

- أفهم وأقدر، قال الرجل بورفيريو. ورفع كأسه: تشرفت جدا.

وانحنى الرجل إزكييلى. أنا أيضا انحنيت. وصاح السنان: يعيش!

كان هناك موقد جمر مشتعل فى وسط هذا المحل الخالى من المناضد، وإلى جواره رأيت شابين من الفلاحين يدفئان أيديهما فوقه. وكان كولومبو يسكب من برميل أقداحا جديدة، وكان الرجال يتمايلون وهم يغنون ببطء. من الأرض ومن الجدران ومن السقف المقبى كانت تتدفق رائحة خمر دهرية تراكما فوق خمر. كل ماضى الخمر مع الإنسان كان حاضرا حولنا.

- يعيش ماذا؟ - سأل الرجل إزكييلى.

- يعيش هذا! ـ أجاب السنان، وهو يرفع كأسه.

- هذا؟ - قال الرجل بورفيريو ـ ما هذا؟

شرب، وشرب الجميع، وأنا أيضا شربت، وقعقعت الأقداح

الفارغة فوق صفيح الطاولة المبللة. جاء كولومبو بنبيذ جديد من البرميل.

- عالم - صاح السنان. أرض، غابة وأقزام الغابة امرأة جميلة، شمس، نور، ليل وصباح، دخان عسل، حب، فرح وتعب، ونعاس دون إهانة، عالم بلا إهانة.

"ودم القديسة بومبيلا..." غنى الرجال على الأريكة بصوت فيه بحة.

كنا فى القدح الثانية، ولم يجد الموال من الهواء أو الجدران آذانا صاغية. لا أظن - قال الرجل بورفيريو.

- بل وهذا أيضا، - قال الرجل إزكييلى.

- لا، الحاجة للماء الحى! - قال الرجل بوفيريو.

- مرحبا بالماء الحى! - صاح كولومبو صاحب القبو. ها هو الماء الحى! أليس هذا ماء حيا؟ خذوا أيها الرجال؛ فرح، حياة، ماء حى...

هز الرجل بورفيريو رأسه الضخم، ولكنه شرب، وشرب الجميع، وأنا أيضا شربت، وشرب الفلاحان القريبان من الموقد بعينين نهمتين، وغنى الرجال الجالسون على الأريكة فى الأقداح المفرغة. أشجار وتين نضر، أوراق صنوبر إبرية - واصل السنان، نجوم فى القلوب الكريمة، مر وبخور، حوريات البحر العميق؛ سيقان حرة، أذرع حرة، صدور حرة، شعر وشعر يطير مع الريح الحرة، عَدْو وصراع حر آه! آووه! يوه!

- آه آ آ آه، آه آ آ آ ه، آه آ آ آه، - غنى رجال الأريكة.

- آه آه - قال الجالسان بالقرب من الموقد. دخل رجال آخرون. صاح كولومبو بكلمة مرحبا وسكب النبيذ. شرب هو أيضا، وتحت السقف المقعود المعتم لم يكن هناك سوى النبيذ العارى عبر العصور، ورجال عراة عبر ماضى النبيذ كله، وعطن نبيذ عار، وعرى النبيذ.

- اشرب أيها الصديق! ـ قال لى السنان، وهو يمد يده لى بالقدح الثالثة.

عندئذ أبدى الرجل بورفيريو ملاحظة: - إن صديقنا غريب.

- نعم، غريب - صدق على كلامه الرجل إزكييلى. كالوجيرو هو أول من تعرف عليه.

- إن لديه شفرة - صاح السنان. لديه الماء الحى. وهو يعانى من أجل العالم المهان، والعالم كبير، والعالم جميل، والعالم طائر ولديه لبن وذهب ونار ورعد وطوفان. ماء حى لمن لديه ماء حى!

- ها هو الماء الحى، أيها الرجال - قال كولومبو. وكان هو أيضا يشرب، وكان هو أيضا عاريا فى عرى النبيذ، كان قزم مناجم النبيذ.

- لست غريبا تماما - أجبت أنا الرجل بورفيريو.

- ليس تماما؟ - قال الرجل إزكييلى.

- ليس تماما كيف؟ - سأل الرجل بورفيريو.

شرحت وأنا أشرب ببطء من القدح الثالثة كيف لم أكن غريبا تماما، وكانت عينا الرجل حزقيال الضيقتان تلمعان بالرضا.

- آه، أرأيتم؟ - صاح الرجل بورفيريو.

- أما كنتم تعرفون أنه من أبناء السيدة فيراوتو؟ - قال القزم كولومبو.

وصاح السنان: لدى السيدة فيراوتو العديد من السكاكين. تعيش فيراوتو!

كان الجميع قد انتهوا من القدح الثالثة، فيما عداى، فقد كنت فى منتصفه، فسكبه السنان على الأرض، وقال إننى يجب أن أشرب الرابعة معهم.

- كنت أعرف جدك - قال الرجل بورفيريو.

- ومن لم يكن يعرفه؟ - صاح السنان. كان لديه الماء الحى.

- نعم - قال الرجل بوريفيريو. كان يأتى إلى هنا معى، وكنا نشرب سويا...

- كان من كبار الشاربين، - لاحظ كولومبو القزم.

من الأريكة فى محاذاة الجدار أصبح الرجال يغنون الآن بنبرة كآبة. "ودم القديسة بومبيلا"، كانوا يواصلون الغناء، ويهزون رؤوسهم وجذوعهم، وفى كدر كانوا عراة داخل أصل عرى الخمر.

- هو أيضا يعانى من أجل العالم المهان،- قال الرجل إزكييلى.

- العالم المهان؟ ما العالم المهان؟ - صرخ قزم النبيذ الأرعن.

- وعرفت أباك أيضا - قال الرجل بورفيريو.

- كنا أصدقاء - أردف الرجل إزكييلى.

- كان شاعرا وممثلا لأدوار شكسبيرية... هاملت، ماكبث، بروتس... ذات يوم مثل لنا شيئا منها...

- كانت مناسبة عظيمة - صاح السنان. سكاكين ورماح! أسياخ متوهجة الحرارة!

كان الجميع يشربون من القدح الرابعة، وأنا فقط كنت أمسك بيدى القدح كاملة، وأستمع للحديث عن والدى أمام النبيذ.

- وكان يأتى هنا لنشرب معا - قال الرجل بورفيريو.

وعلق الأرعن القزم قائلا: ها هنا قدم عرضه التمثيلى. جاء بمعطف أحمر، وقال لى إننى كنت ملك الدانمرك.

- وقال لى إننى بولونيوس، - تمتم بتواضع الرجل إزكييلى. ثم أردف: - آه! كان يعانى كثيرا من أجل العالم المهان.

وصاح السنان من جديد: يعيش!

وتساءل الرجل بورفيريو من جديد: ما الذى يعيش؟

- يعيش! يعيش! ـ صاح السنان.

- يعيش! صاح سكران.

- يعيش! صاح سكران آخر.

- يعيش! ـ تمتم فى تواضع الرجل إزكييلى.

"يعيش! يعيش! يعيش!" غنى من الأريكة الرجال الحزانى الذين كانوا يترنحون. وهكذا، سواء كانوا يعانون من أجل متاعبهم الخاصة، أو يعانون من أجل ألم العالم المهان، فإنهم يجلسون معا

فى مدفن الخمر العارى وكان بوسعهم أن يصبحوا كالأرواح، الراحلة فى النهاية، من عالم المعاناة والإهانات هذا.

أما عن الشابين الجالسين على الأرض إلى جوار الموقد فقد كانا دون خمر يبكيان.

- ٣٩ -

- كأس أخرى لى وللأصدقاء - طلب الرجل بورفيريو.

كان قد فك أزرار الفراء الضخم الذى كان يعيش فيه، وكان الرجل إزكييلى قد تحرر من لفة الشال الذى كان يتدثر به.

- سيكون القدح الأخير - قال الرجل بورفيريو - ولكن سوف يكون هناك قدح آخر.

كان قد شرب ستة أقداح، وكان إزكييلى والسنان قد شربا خمسة، وكنت أنا لا يزال قدحى الرابع مليئا. كان كالجالس على عرشة فى سرداب النبيذ ذلك، ضخما، أحمر اليدين والوجه، أبيض وكستنائى اللحية، أبيض وأسود الشعر. كان رجلا، لا ينتمى إلى الخمر مثل كولومبو القزم، وإنما كان ملكا منتصرا عظيما يسكن فيما غزاه فيما وراء العالم، فى الخمر.

ثم إنه كان ينفى أن الخمر ماء حى، ولم يكن ينسى العالم. لا تتوهموا، لا تتوهموا! ـ كان يقول.

- ماذا؟ - كان السنان يقول.

وكان الرجل إزكييلى يدور بعينيه الضيقتين بخوف مفاجئ. كان يبدو أن عينيه تصرخان: "لا" . ثم كان الرجل بورفيريو يؤكد وقد أغلق يده الحمراء على مقبض القدح إنه لم تعد هناك صغائر فى عالم يوجد به خمر.

- ولكن إهانات العالم؟ الإهانات الرهيبة للجنس البشرى وللعالم؟ - سأل الرجل إزكييلى.

وأعود أكرر أنى كنت فى القدح الرابع. شىء ما أوقفنى فى بدايته ولم أعد أستطيع أن أشربه، لم أعد أجرؤ على الزج بنفسى فى وحشة عرى النبيذ الخمر الذى لا أرض له.

- اشرب يا صديقى - كان الرجل بورفيريو يحثنى.

كنت أحاول، وأخذت رشفة بين شفتى، وكان النبيذ يبدو طيبا فى حد ذاته بين شفتى، ومع ذلك لم أكن أستطيع أن أشربه، ولأجل الماضى الإنسانى كله الذى بداخلى كنت أحس أنه لم يكن شيئا حيا من عصير من الصيف والأرض، وإنما هو شىء حزين، شبح حزين من عصارة كهوف مغارات الزمن. ماذا عساه يكون غير ذلك فى عالم مهان على الدوام؟ أجيال وأجيال شربت، وسكبت ألمها فى الخمر، وبحثت عن العرى فى النبيذ، وكل جيل كان يشرب من الآخر، من عرى خمر الأجيال الماضية البائس، ومن الألم المسكوب كله.

"ودم القديسة بومبيلا" كان الرجال الحزانى الجالسون على الأريكة يغنون.

كل واحد فى المحل أصبح الآن محنى الرأس، أصبح كل واحد حزينا. كان السنان حزينا بعينين متفجرتين. وكان إزكييلى حزينا

بعينين خائفتين، كان يتلفت حوله فى فزع وهلع لكى يرى أشكال إهانة العالم.

كان هو بولونيوس أمام والدى الشكسبيرى. وماذا عن الرجل بورفيريو؟ ماذا عساه يكون الرجل بورفيرو أمام والدى فى دور هاملت؟ كان هو صافى النفس الوحيد لأنه غير الواهم الوحيد، وكان على أية حال مسئولا مسئولية كبيرة. كان ينظر إلينا، أنا وإزكييلى والسنان والسكارى الواقفين أمام الطاولة، والشابين اللذين كانا يبكيان وهما جالسان على الأرض بجوار الموقد، والرجال الذين كانوا يغنون على الأريكة. حزانى يهزون رؤوسهم وكانوا يهزونها مثلما يهزها البعض وهو يبكى. وجاء غناءهم أنينا مبحوحا. ظل الرجل بورفيريو ينظر إليهم طويلا، ثم نظر إلى إزكييلى وإلى السنان، ثم نظر إلى الشابين الباكيين اللذين لم يشربا شيئا طوال المساء، وظننت أنا أنه قد يكون فى أسف على أنه سحب وراءه كثيرا من الرجال إلى قحط غزو السراديب ذاك، لكنه كان صافيا، وانعزل فى صلة فوق طبيعية مع الرصد كولومبو.

لم يعد ينظر إلى أى أحد، وكان وجهه ضاحكا، لم يعد يرى شيئا آخر أمامه سوى سعادة الخمر العارية فى كولومبو، رصد الخمر. وكان عاريا فى نعاس هانئ وإن كان لا يزال واقفا على قدميه، كان الضاحك النائم القديم الذى ينام عبر عصور البشر، جدنا نوح الخمر.

وتعرفت عليه وتركت القدح، لم يكن هذا ما كنت أود أن أؤمن به، لم يكن فى هذا عالم، فانصرفت، عبرت الشارع الصغير ووصلت حيث كانت تسكن أمى.

- ٤٠ -

كان البيت على الحافة التى تميل فيها أسطح المنازل نحو الوادى الضيق. صعدت السلم الخارجى الصغير ، ووصلت إلى البسطة. كنت على يقين من رغبتى فى ألا أدخل، وألا أبحث عن الطعام والفراش، بل أن أكون بدلا من ذلك فى القطار، وتوقفت.

كان البرد شديدا، وفى الأسفل كانت هناك أنوار، وفى الأعلى أيضا، كانت مجموعات متفرقة من أربعة أو خمسة أو ستة. وكان الهواء أزرق. يومض ثلج نجم كبير مهجور فى السماء.

كان الوقت ليلا، على صقلية وعلى الأرض الساكنة: العالم المهان كان مغطى بالظلمة، ولدى الرجال أنوار مغلقة معهم فى غرفهم، والموتى، والقتلى جميعا، كانوا قد نهضوا لكى يجلسوا فى قبورهم يتأملون. فكرت أنا، وصار الليل البهيم بداخلى ليلا على ليل. وتلك الأنوار فى الأسفل وفى الأعلى، وبرودة الظلمة تلك، وثلج ذلك النجم، لم يكونوا ليلة واحدة، وإنما ليالى لا نهائية. وفكرت أنا فى ليالى جدى وفى ليالى أبى، وفى ليالى نوح ، ليالى الإنسان، العارى فى الخمر والأعزل، الذليل، الأقل رجولة من صبى، أو من ميت.

الجزء الخامس

- ٤١ -

حينذاك تذكرت أن "السيدات الجميلات"، وهو اسم الطريق القريب هناك، هو المكان المعروف فى صقلية بعمق لياليه: وكان يعنى "الأرواح".

والرجل الذى يظل عاريا أعزل يذهب ليلا ويقابل الأرواح، السيدات الجميلات الشريرات اللاتى يتحرشن ويستخففن به، بل ويلفظنه ركلا، وكلهن خيالات أعمال البشر، إهانات العالم والجنس البشرى الخارجة من الماضى. لم يمتن بعد، ولكنها من الخيالات، أى أشياء لا تنتمى لعالم ما تحت الأرض. والإنسان، الذى جعله النبيذ، أو غيره، أعزل، يسقط فريسة لهن.

كان يقول: الملوك، الأبطال. ويترك وعيه العارى نهبا، ويتقبل الإهانات القديمة على أنها أمجاد.

ولكن البعض، شكسبير أو والدى الشكسبيرى، كان يسيطر عليهن، ويدخل فيهن، ويوقظ فيهن الطين والأحلام، ويجبرهن على الاعتراف بالذنوب، وعلى أن يعانين من أجل الإنسان، وأن يبكين من أجل الإنسان، وأن يتحدثن من أجل الإنسان، وأن يصبحن رموزا

للتحرر الإنسانى. البعض بالنبيذ والبعض الآخر بدون نبيذ. مثال شكسبير العظيم، فى صفاء لياليه، التأملية غير الخائفة، وأبى الصغير فى عتمة لياليه المجنونة التى كانت الخمر تطيلها.

كان هذا هو الضرر بالنسبة لوالدى، أن يكون عاريا ومجنونا فى خمره، ذلك الرجل المسكين. نوح الواجب ستره برداء بار وليس رجل الإمارات والأعاجيب.

على أية حال فأنا لم أكن أعرف.

كان الليل يصل بعد طول انتظار منا ونحن فى النوافذ وكان يشغل الأرض الواسعة حولنا الخالية من الأشجار ومن الأوراق. كان والدى يظهر وهو يرتدى ملابس التمثيل، وكان رجاله يظهرون.

- جاهزون؟ - كان يقول. وينتزع من الجدار البوق الذى فى جوزته بصفته رئيسا لفريق العمال.

دون ضجيج كنا نصعد فوق العربة، نحن الذين معه فى هاملت. وكانت أمى تأخذ مكانها فى المنتصف، جالسة على مقعد، وكنا نحن نجلس عند قدميها، وكان أبى يوجه المقدمة بينما يدفعها رجلان. هكذا كانت العربة تجرى، نهارا لخدمات السكة على طول الخط، وليلا لهاملت. وكان الرجلان يدفعانها لدقائق، ثم يقفزان فوقها متى بدأ الطريق ينحدر، وبعدها لا يتكلم أحد. كانت العربة تجرى وحدها نحو قاعة انتظار إن كان الوقت شتاء، أما إذا كان صيفا فنحو ساحة سكك حديدية حيث كان التمثيل يتم فى الخلاء، بين الفلاحين القادمين من الأجران بعد الحصاد، وبين النيران،

والصيحات، وأبى قد سيطر عليه شيطان التمثيل فوق خشبة مسرح مقامة بالعوارض.

آه، الليل، آنذاك!

من الأراضى المجاورة كان نباح الكلاب يتصاعد فى الأفق؛ وكانت السماوات السبع غير المرئية، وجبال درب اللبانة، تمتلئ بالياسمين. عشرة أو خمسة عشر كان عدد النجوم؛ ولكننا كنا نشم منها عطر الملايين. وكان والدى قد نفخ البوق فى البداية.

ثم يدرك بسمعه شيئا فيصيح:

- من هناك؟

كان الأمر يتعلق بعربة أخرى قادمة على الخط أمامنا.

- بولونيوس - كانت هذه هى الإجابة.

أو:

- فورتنبراس.

أو:

- هوارشيو.

والجميع كانوا رجالا عراة ومجانين يسيطرون على الأشباح بفضل النبيذ.

- أوه، أيها العالم المهان! أيها العالم المهان! ـ صرخت أنا عند هذه الفكرة. لم أكن أنتظر إجابات إلا إذا جاءت من الذاكرة، ولكن وصلتنى إجابة من الأرض من أسفل. كان صوت يقول: - ههم!!

ـ ٤٢ ـ

"ربما كان سنانا آخر"، جال بخاطرى.

نظرت إلى أسفل أبحث عنه ولكننى لم أر شيئا. لم يكن هناك شىء سوى الأنوار المعتادة فى السكون البارد.

- ماذا هناك؟ - ناديت.

-ههم! ـ أجاب الصوت من جديد.

نظرت وأنا أبحث على نحو أفضل، وعندئذ رأيت أن الأنوار لم تكن هى المعتادة، أنوار الغرف المغلقة حيث كان يسكن الناس. فتلك فيما يبدو كانت مطفأة. أما هذه الأخرى فكانت موقدة تميل إلى الحمرة فى الليل المفتوح، كانت مثل فوانيس عمال السكك الحديدية موضوعة على أرض الوادى الضيق. ولكننى كنت أبحث عن ذلك الذى قال لى: ههم!

- ههم؟ - سألت ـ ههم؟

- ههم! ههم! ههم! ـ أجاب الصوت الرهيب.

قررت أن أنزل لكى أراه ونزلت، فوجدت نفسى بين تلك الأنوار

التى تشبه الفوانيس المهجورة، ورأيت أنها كانت أنوار الموتى. آه، إننى فى المقابر - قلت.

- ههم! ـ أجاب الصوت.

- من أنت؟ - سألت أنا. هل أنت اللحّاد؟

وأجاب الصوت: لا، لا. أنا أعمل جنديا.

جاهدت أن أرى، كان الصوت يرن قريبا؛ ولكن أنوار الموتى لم تكن تعطى إضاءة حولها. غريبة! ـ قلت أنا.

ضحك الجندى: - غريبة؟

- ربما تكون الحارس هنا؟ - سألته أنا.

- لا، - قال الجندى ـ إننى أستريح.

- هنا بين القبور؟ - تعجبت.

- إنها قبور جميلة مريحة - قال الجندى.

وقلت أنا: - ربما جئت هنا لكى تفكر فى أمواتك.

- لا - أجاب الجندى. إذا كان الأمر كذلك فأنا أفكر فى الأحياء.

- آه! ـ قلت أنا. فى المحبوبة على ما أظن.

وقال الجندى: فى الجميع تقريبا. فى أمى وأخوتى ورفاقى، ورفاق رفاقى، وأبى فى ماكبث.

- أبوك فى ماكبث؟ - تعجبت أنا.

- بالتأكيد يا سيدى - أجاب الجندى. لقد كان معتادا على أداء أدوار الملوك ذلك الرجل المسكين.

- هل هذا ممكن؟ - سألت أنا.

- آه، نعم! ـ قال الجندى. إنهم يعتقدون أن الآلهة تتسامح مع الملوك فيما تكرهه من العوام.

- هل هذا ممكن؟ - تعجبت من جديد. كان أبى كذلك أيضا...

- حسنا - قرر الجندى. هم هكذا الآباء جميعا. وأخى سيلفسترو...

أطلقت ما يشبه الصيحة. أخوك سيلفسترو؟

- لماذا تصيح؟ - سأل الجندى. ليس هناك شىء مستغرب فى أن يكون لى أخ اسمه سيلفسترو، ذلك الصبى المسكين.

- كلا - أجبت أنا. ـ ولكن سيلفسترو هو اسمى أنا.

- وماذا يعنى هذا؟ - قال الجندى. إن الأسماء قليلة والرجال كثر.

وسألت أنا: - هل يبلغ أخوك من العمر ثلاثين سنة؟

- لا يا سيدى - أجاب الجندى - إنه فتى فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره. يلبس السروايل القصيرة، برأسه المليئة بالشعر، وهو عاشق. يحب، يحب العالم. وهو مثلى فى هذه اللحظة...

- مثلك، كيف؟ - تمتمت.

- نعم - أجاب الجندى ـ لا شىء يمكن أن يهيننا فى حبنا، هو كفتى، وأنا..

- أنت ماذا؟ - تمتمت.

ضحك الجندى، ـ ههم! ـ ضحك.

وأنا مددت يدى ـ أين أنت؟

- مِن هنا - قال الجندى.

ذهبت أنا إلى هناك أبحث عنه بيدى ولكننى لم أصل إلى شىء. كانت أنوار الموتى دون ضياء قد امتدت خلفى فى طريق طويل، وكان لا يزال منها الكثير حولى وأمامى. أين أنت؟ - سألت من جديد.

- مِن هنا، مِن هنا، - قال الجندى.

- آه، من تلك الناحية الأخرى؟ - سألت أنا.

- بالتأكيد، أجاب هو ـ من الأخرى.

- كيف؟ - سألت أنا. إلى اليسار إذاً.

- ههم! ـ قال الجندى.

توقفت. ربما أصبحت الآن فى آخر الوادى، فأنوار الموتى كانت تلمع دون أن تضىء حتى فوق رأسى. صرخت: فى النهاية، هلِ أنت موجود أم لا؟

أجاب الجندى: هذا ما أسأل نفسى فيه بعض الأحيان. هل أنا موجود أم غير موجود؟ على كل حال أستطيع أن أتذكر. وأن أرى...

- ماذا أيضا؟ - سألت أنا.

- كفى - قال الجندى ـ أرى أخى وأريد أن ألعب معه.

- آه! ـ تعجبت ـ هل تريد أن تلعب مع صبى فى الثانية عشرة من عمره؟

- ولم لا؟ - أجاب الجندى ـ إنه أكبر منى. إذا كان عمره أحد عشرة سنة فأنا عمرى سبع سنوات.

وصرخت أنا : - كيف؟ هل تعمل جنديا وعمرك سبع سنوات؟

تنهد الجندى وبلهجة عتاب قال: أظن أننى عانيت بما فيه الكفاية حتى أصل إلى هذا.

إلى هذا؟ - قلت أنا. إلى أن تصبح جنديا؟

لا - أجاب هو ـ إلى أن يكون عمرى سبع سنوات. إلى أن ألعب مع أخى.

هل تلعب مع أخيك الآن؟ - سألت.

نعم يا سيدى، - أجاب. ـ بعد إذنك، أنا ألعب أيضا.

أيضا؟ - لاحظت أنا. ماذا تفعل غير ذلك؟

أفعل غير ذلك الكثير - أجاب هو. أتحدث مع فتاة. أقلم كرمة، أروى حديقة. أجرى...

أوه، أنت تنسى أنك بين هذه المقابر، - قلت أنا.

لا شىء من هذا - أجاب هو. أعرف تماما أننى هنا، وأن لا شىء يمكن أن يهيننى... أنا هادىء فيما يتعلق بهذا.

المهم أنك سعيد- قلت أنا.

تنهد هو من جديد - كيف أكون كذلك؟ أرقد فوق ساحة من الجليد ومن الدم منذ ثلاثين يوما.

- ما هذا العبث الذى تقوله؟ - تعجبت أنا.

هنا لم يجبنى الجندى على الفور وهكذا استطعت أن أسمع لحظة من الصمت العميق صارت بينى وبينه.

- هههم! ـ قال الجندى.

- هههم! ـ قلت أنا.

وقال الجندى: معك حق. سامحنى. هذه كانت طريقتى فى الكلام المجازى.

تنهدت راضيا، ومرة أخرى مددت يدى فى تلقائية ـ أين أنت؟

- من هنا - قال الجندى.

-٤٣-

مثل المرة الأولى بحثت عنه بضع دقائق عن يسارى وعن يمينى، ثم تراجعت عن البحث. العتمة شديدة - قلت.

- فعلا - رد.

ورحت أجلس فوق مقبرة، وضوء الميت إلى جوارى.

- من الأفضل الجلوس.

- هكذا أفضل - أجاب الجندى ـ خاصة وأن لدينا عرضاً تمثيلياً.

- عرض تمثيلى؟ - تعجبت. أى عرض تمثيلى؟

- ألم تأت لكى تشاهد العرض التمثيلى؟ - قال الجندى.

وقلت أنا: أنا لا أعرف شيئا عن العرض.

وقال الجندى: أوه، اجلس لترى... ها هم يصلون.

أنا: من هم الذين يصلون؟

الجندى: هم جميعا، ملوك ومعارضة، منتصرون ومنهزمون...

أنا: هل أنت جاد؟ أنا لا أرى شيئا...

الجندى: ربما كان هذا بسبب العتمة.

أنا: ولماذا إذن يقدمون العرض التمثيلى؟

الجندى: لا بد أن يقدموه. فهم ينتمون إلى التاريخ...

أنا: ماذا يمثلون؟

الجندى: الأعمال التى مجدتهم.

أنا: كيف؟ كل ليلة؟

الجندى: دائما يا سيدى. حتى يضع شكسبير بالشعر كل شىء عنهم، ويثأر للمقهورين ويسامح المنتصرين.

أنا: ماذا؟

الجندى: ما قلت لك.

وأنا: ولكن هذا رهيب.

الجندى: مرعب.

أنا: - أتخيل أن هناك من يعانى كثيرا. قياصرة لم يكتب عنهم. مكابث لم يكتب عنهم(١).

الجندى: والتابعون، الوطنيون، الجنود... نعانى يا سيدى.

أنا: أنتم أيضا؟

الجندى: أيضا.

أنا: كيف أنتم أيضا؟

---

(١) القياصرة: جمع قيصر ويشير إلى يوليوس قيصر بطل مسرحية شكسبير، ومكابث: جمع ماكبث، بطل مسرحية شكسبيرية أخرى (المترجم).

الجندى: أنا أيضا أمثل.

وأنا: تمثل؟ هل تمثل الآن؟

الجندى: دائما، منذ ثلاثين يوما وحتى الآن.

أنا: ولكن ألم تقل إنك تلعب مع أخيك ذى الأحد عشر ربيعا؟

الجندى: نعم. وأتكلم مع فتاة، وأقلم كرمة عنب، وأروى حديقة...

أنا: ومن ثم؟

لم يرد الجندى.

- ومن ثم؟ - ألححت أنا.

وأجاب الجندى: هههم!

- هههم؟ لماذا هههم؟ صحت أنا.

ومرة أخرى لم يحر الجندى ردا.

- هل تسمعنى؟ - ناديت.

- نعم أسمعك- أجاب الجندى.

أنا: كنت أخشى أن تكون قد انصرفت.

هو: لا، أنا هنا.

أنا: لا أريدك أن تنصرف.

هو: لن أنصرف.

- حسنا - قلت أنا.

وترددت. قلت حسنا مرة أخرى. وترددت من جديد. وقلت حسنا مرة أخرى. وفى النهاية سألت: - هل هو شىء سيئ؟

- آواه آواه، نعم - أجاب هو. عبد مقيد، جريح ينزف كل يوم أكثر فى ساحة الجليد والدم.

- آه! - صحت أنا. هل هذا هو ما تقومون بتمثيله؟

- إن شئت الدقة، فهذا هو المجد الذى أنتمى إليه - أجاب الجندى.

قلت أنا: هل تعانى كثيرا؟

- كثيرا، قال هو. ملايين المرات.

أنا: ملايين المرات؟

هو: من كلمة مطبوعة، من كل كلمة تقال، من كل ملليمتر من برونز تمثال ينصب.

أنا: تبكيك؟

هو: تبكينا.

- ومع ذلك - قلت أنا - تلعب مع أخيك وتكلم فتاة وتفعل الأشياء الأخرى كلها... أليس فى هذا عزاء؟

- لا أعرف - قال الجندى.

- ألا يكفى؟ - تساءلت أنا.

- لا أعرف، قال الجندى.

قلت أنا: - أنت تخفى عنى شيئا. خلتك مستقرا ولا شىء يمكن أن يهينك..

- فعلا - أجاب الجندى.

- إذاً فليس صحيحا أنك تبكى - صحت أنا.

- آواه! ـ تنهد الجندى.

سألته بصوت خفيض: هل أستطيع أن أفعل شيئا لكى أسرى عنك؟

وعاد هو يجيب بأنه لا يعرف.

واقترحت عليه: ربما بسيجارة.

فتشت فى جيوبى عن السجائر وأردفت: هل تريد أن نحاول.

- فلنحاول - أجاب هو.

مددت يدى بالسيجارة. ها هى، قلت له.

ولكن السيجارة ظلت بيدى. أين أنت؟ - ناديت.

- أنا هنا - قال الجندى.

نهضت واقفا وتقدمت خطوة، وتقدمت خطوة أخرى، وأنا لا زلت أمد يدى بالسيجارة دائما، ولكن السيجارة تظل دائما فى يدى.

- نهاية الأمر! هل تريدها أم لا؟ - صرخت.

- أريدها، أريدها! ـ أجاب الجندى.

- أمسكها إذاً. أين أنت؟ - صرخت.

لم يعد الجندى يجيبنى. وواصلت أنا الصراخ، وبدأت أجرى، فوجدت نفسى خارج الوادى العميق، ومرة أخرى فى الطرقة أمام باب بيت أمى؛ ورأيت أن المقابر كانت بأسفل بعيدة جدا، بأنوارها.

- ٤٤ -

نمت ما تبقى من تلك الليلة كله، ونسيت، ولكننى عندما استيقظت كان الجو ما يزال ليليا.

كان هناك رماد بارد فى ثلج الجبال يلتف حول صقلية، والشمس لم تكن قد طلعت، وما كان يمكنها أن تطلع. كان ليلا دون هدوء الليل، دون نعاس، وكانت الغربان تحلق فى الهواء، ومن أسطح المنازل ومن البساتين كانت تنطلق بين كل حين وآخر طلقة نارية.

- ما هذا؟ - سألت أمى.

- إنه الأربعاء - أجابتنى أمى.

كانت هادئة، وقد عادت لوضع غطائها على كتفيها، والحذاء الرجالى الكبير فى قدميها، ولكنها كانت غائمة المزاج، عزوفا عن الكلام.

- سوف أعود أدراجى اليوم - قلت لها.

رفعت أمى كتفيها برهة، وهى جالسة وعلى رأسها الرماد الذى يغلف صقلية.

- ولكن ما هذا؟ - صرخْت.

نهضْت وخرجْت إلى الطرقة، وتبعتنى أمى بهدوء. كانت كأنها تحرسنى.

"بوم!" جاء صوت بندقية.

- على ماذا يطلقون الرصاص؟ - سألت أنا.

وقفت أمى على الباب وهى تنظر لأعلى حيث كانت الغربان تطير.

- عليها؟ - سألتها.

- نعم، عليها، - أجابت أمى.

ومن جديد انفجرت طلقة بندقية فمزقت رماد الهواء، ونعقت الغربان محصنة من الأذى.

- تضحك - علقت أنا.

- ألم تذهب عنك السكرة؟ - قالت أمى.

نظرت إليها، كانت تقف هناك، أعود وأقول، كأنها تحرسنى.

- وهل كنت سكران؟ - سألت.

- ولا تدرى حتى بهذا؟- قالت أمى. ـ لقد عدت مثل أبيك تماما عندما كان يعود سكران، فى حالة سكر بيّن. وذهبت لتلقى بنفسك فى فراشى، وجعلتنى أنام على الأريكة.

انفجرت طلقة بندقية أخرى.

- أنا لا أفهم ماذا يحدث لكم - واصلت أمى. كان جدك يغنى ويمزح بعد أن يشرب.

ارتفعت طلقة بندقية رابعة من بستان، وتلتها طلقة خامسة، ولكن الغربان كانت تواصل طيرانها دون أن تصاب محلقة أعلى رماد هواء السماء، ولم تغير اتجاه مسارها إطلاقا، بل كانت تنعق، وتضحك.

- لماذا هذه الغربان؟ - سألت.

ركزت حينئذ أمى انتباهها، فكانت تنتظر أن يسقط أحد الطيور.

- ولكن هل يصوبون عليها حقا يا أمى؟ - سألت أنا.

دوت طلقة سادسة، وسابعة وأمى صامتة.

- لا فائدة. لن يصيدوها - قالت.

دخلت البيت ثم عادت مسرعة ومعها بندقية صيد، وأخذت تطلق النار هى الأخرى.

"بوم! بوم!"

ولكن ما من شيء استطاع أن يغير من طيران الغربان الذى لا يمكن الوصول إليه.

- تضحك!- علقت أنا.

"بام! بام! بام!" أجابت أمى.

عندئذ ارتفع صوت امرأة بدينة من أسفل السلم وحملت لأمى بشرى، صاحت به من بين طلقات البندقية والغربان:أم محظوظة!

ـ ٤٥ ـ

دون كلمة واحدة ما أن عادت إلى المطبخ راحت تتخذ لها مجلسا.

كان الموقد مشتعلا فى وسطه، وفى بطء راحت تأخذ بيدها الماشة فتهزها، وتؤرجحها، ثم تدفع بها إلى الرماد وتقلب النار، ثم نهضت بعدها لكى تذهب إلى موقد الطهى، وكنت أنا أظن أنها لم تفهم شيئا.

- هل ستأكل معى قبل أن تسافر؟ - سألتنى.

- كما تريدين - قلت أنا ـ كما تريدين.

كنت أظن أنها لم تفهم شيئا، وكنت أيضا على استعداد لأن أفعل أى شىء من أجلها، رغم أن رحلة صقلية كانت قد انتهت. عزيزتى السيدة العجوز، الأم المحظوظة! سألتنى ما إذا كنت سوف أرضى بالرنجة كما فى اليوم السابق، أو إذا كنت أحب تناول بعض الشيكوريا. وسألتنى ما إذا كنت فى أثناء ذلك أريد فنجانا من القهوة، وراحت تعد القهوة، وأنا رأيت حركاتها حول إناء القهوة والموقد، ورأيتها تعزل نفسها فى أعمال البيت كما تعزل النساء

جميعا أنفسهن، وارتعدت لوحدتها ولوحدتى، ولوحدة أبى، ولوحدة أخى الذى مات فى الحرب.

- متى سترحل؟ - سألتنى.

وكانت صقلية قد أصبحت واجبا ملزما، وأنا كنت أعانى لذلك، وأجبت بأننى أريد أن أصل فى موعد مناسب لكى أسافر مساء اليوم من سيراكوزا. كانت هى تطحن البن، وكانت وهى تطحن تجرى حسابات حول مواعيد القطارات والحافلات. ثم قالت: أتمنى ألا تلتحق بالجندية، على الأقل.

عندئذ عرفت أنها قد فهمت. أوه! - تعجبت.

وأردفت هى: سوف تعود مرة أخرى.

- هل أنت مسرورة لأننى زرتك؟ - سألتها أنا.

وقالت هى: طبعا. من اللطيف التحدث مع ابن بعد خمسة عشر عاما...

انتهت من الطحن، نشنشة ماء فاض فوق النار جذبتها نحو الموقد، كل هذه الأشياء الخاصة بوحدتها. واصلت: السنون تأتى وتذهب، وكذلك الأبناء يأتون ويذهبون...

ولأن الغربان كانت تصرخ هناك خارج النافذة فقد قالت: هذه الغربان!

- ولكن ما الذى يستدعيها هنا؟ - قلت أنا.

رفعت أمى كتفيها. تظهر بين الحين والآخر.

سألتها أنا فى برهة الصمت التى تلت ذلك: من كان؟

نظرت أمى إلى أشياء تخص طفولتنا المنتشرة فى المطبخ، ونظرت إلى بعيد، ثم إلى قريب، ثم إلى قريب أكثر وأكثر، وأجابت:

- ليبوريو.

- آه، ثالثنا؟ - قلت أنا.

قالت هى: لم يكن قد خرج بعد إلى الدنيا وكان سعيدا بأنهم استدعوه. أرسل لى بطاقات بريدية من الأماكن التى زارها فى العالم. ثلاث العام الماضى واثنتان هذا العام. مدن جميلة! لابد أنها أعجبته.

- كانت مدن الحرب؟ - علقت.

- أعتقد ذلك - أجابت.

- وكان سعيدا؟ - صرخت.

صرخت بمعنى الكلمة، ثم أردفت: يا له من قرار جميل، يتخذه شاب!

قالت أمى: لا يكن ظنك به سيئا، الآن.

- سيئا؟ - صرخت. ـ ما الذى قفز إلى ذهنك؟ لابد أنه كان بطلا.

نظرت لى أمى كأننى أتحدث بمرارة. لا! ـ قالت. كان صبيا مسكينا. كان يريد أن يرى العالم. كان يحب العالم.

- لماذا تنظرين هكذا؟ - صرخت. كان شجاعا غزا انتصر.

وصرخت أعلى وأعلى: ومات، من أجلنا ومن أجلك. من أجلى ومن أجل كل الصقليين هؤلاء، من أجل أن تبقى كل هذه الأشياء،

وصقلية هذه، والعالم هذا... كان يحب العالم!

- لا! ـ قالت أمي. لا! كان صبيا معك. كان عمرك أحد عشر عاما وهو سبعة. أنت...

- ناولينى هذه القهوة، - صرخت.

- نعم - أجابت أمى.

وملأت فنجانا، وحملته إلى. وأردفت وهى تضعه أمامى: على أية حال أعتقد أننى ما كنت لأراه بعد ذلك. ولدى المسكين! كان يحب العالم.

ـ ٤٦ ـ

رأيتها تعزل نفسها فى هذه الفكرة، فكرة الصبى المسكين الذى يحب العالم، وتضع فيه رغبة كل صبى: أن يعرف العالم، أن يمشى فى شوارع المدن الجميلة، وأن يلتقى النساء. فى أثناء ذلك شربت القهوة، وكانت أمى تنظر فى وجهى وكأن به ما هو غريب جدا، كأننى مثلا أشرب القهوة بجزع وغضب. وفى الحقيقة فقد كنت أنكر عليها اعتقادها فى فكرة الصبى المسكين، والفكرة التى عندى عن عمر السبع السنوات. لم أكن أريد أن يكون هناك جندى عمره سبع سنوات. وهكذا، بغضب حقيقى، وبجزع حقيقى، صرخت قائلا: يا للشيطان!

عادت أمى لتجلس على المقعد الذى كان موجودا أمام الموقد، وعلقت ببطء شديد: شىء واحد فقط لا أفهمه. لماذا دعتنى تلك السيدة بالمحظوظة؟

قلت بسرعة: ولكنه أمر واضح. لموته الذى يشرفك.

وقالت هى: موته يشرفنى؟

وقلت أنا: إنه بموته جلب لنا الشرف...

ومن جديد راحت تنظر لى كما لو كنت أتكلم بمرارة. ولكنها كانت نظرتها المحددة التى كانت تنظر إلى بها فور أن يخرج منى أى تعبير: أى شك أو انتقاد. قالت لائمة: وهل هذا هو حظى؟

وقلت أنا فى إصرار: شرفه يعود عليك أنت لأنك أنت التى ولدته.

وقالت هى بنفس اللوم: ولكننى فقدته الآن. كان لابد أن يسموننى بالمنحوسة!

وقلت أنا: لا شىء من هذا مطلقا! إنك اكتسبته بفقدك إياه! أنت محظوظة.

وقد أصابها الاضطراب ظلت أمى برهة تتأمل الفكرة. ظلت دائما تنظر لى نظرة ارتياب مشوبة باللوم. تبدو أنها كانت تحس بأنها تحتمى بى. سألتنى: هل أنت متأكد أن هذه السيدة لم تكن تسخر منى؟

- كلا، على الإطلاق! ـ أجبتها أنا ـ كانت تعرف تماما ما تقوله.

- كانت تعتقد حقا أننى محظوظة؟ - سألت هى.

- بالتأكيد - أجبتها أنا ـ كانت تود لو كانت فى مكانك.

وقالت هى: فى مكانى؟ كيف؟

وقلت أنا: وليبوريو ابنك ميت... كانت سوف تفخر بهذا.

وهى: إنها تحسدنى إذاً...

وأنا: كل النساء يحسدنك...

ومع ذلك ظلت أمى تنظر لى بارتياب. كانت تحس أنها فى رعايتى، كان هذا واضحا. وفى لحظة تحررت: - ولكن ماذا تقول؟

- أقول الحقيقة،- قلت أنا- وهذا مكتوب أيضا فى الكتب. ألا تتذكرين شيئا من كتب المدرسة؟

قالت هى: تركت المدرسة وأنا فى الفرقة الثالثة.

وقلت أنا: لا بد أنك درست شيئا من التاريخ.

وهى: ماتسينى وجاريبالدى!

وأنا: وقيصر، وموتسيو، وشيفولا، وتشينشناتو، وكوريولانو. ألا تذكرين شيئا من التاريخ الرومانى؟

هى: أذكر ما قالته كورنيليا أم الأخوين جراكو(١).

أنا: آه، حسنا، ماذا قالت كورنيليا؟

هى: قالت إن جواهرها هى أولادها.

أنا: أترين؟ كانت كورنيليا فخورة بأولادها.

ابتسمت أمى فى الحال. - كم أنت أبله! - عقبت على كلامى. - ولكن أبناءها لم يكونوا قد ماتوا بعد.

- صحيح! - قلت أنا. - لم يكونوا قد ماتوا بعد. ولكن لم كانت كورنيليا فخورة بهم فى تصورك؟

- لم؟ سألت أمى باستنكار.

---

(١) كورنيليا هى أشهر أم فى التاريخ الرومانى، عاشت بين عامى ١٩٠و ١٠٠ قبل الميلاد، وأصبحت أرملة فى سن صغيرة، ورفضت تنفيذ القانون الرومانى الذى كان يقضى بأن تتزوج حتى يكون لأطفالها الصغار عائل، وقررت أن تتفرغ لتربية أطفالها: الأخوين جراكو وأختهما، وتروى عنها أقوال مأثورة فى هذا الإطار جاءت ضمن الأساطير الرومانية.

وقلت أنـا: - لأنها كانت تعرف أنهم مستعدون للموت... كانت كورنيليا أما رومانية.

رفعت أمى مرة أخرى كتفيها فى غير ارتياح، وظلت تنظر لى بارتياب.

- أترين؟ - واصلت أنا - هذه المرأة اعتبرتك مثل كورنيليا. ألا يعجبك أن تكونى مثل كورنيليا؟

- لا أدرى - أجابت أمى مرتابة.

وسألت: كيف كانت كورنيليا هذه؟

- آه، كانت امرأة عظيمة! - قلت أنا. واحدة من النبيلات... امرأة ذات شأن...

وقالت أمى: هل كانت امرأة جميلة؟

وقلت أنا: جميلة وحكيمة. طويلة. شقراء. مثلك على ما أعتقد.

- يا للعجب! - تعجبت أمى. ولماذا يكتبون عنها فى الكتب؟

- الفضل كل الفضل لأبنائها - صرخت أنا.

- محظوظة! - صاحت أمى.

وصرخت أنا: هل رأيت؟ وهكذا فأنت أيضا محظوظة...

انتفضت أمى: أنا؟ - واحمر وجهها، أصبح نارا ومشاعل بالغطاء المنسدل على كتفيها، وتعجبت قائلة بسرعة - هل يعنى هذا أنهم سوف يكتبون فى الكتب عنى أنا أيضا؟

- تقريبا - قلت أنا - عنك وعن ابنك. لقد أصبحتم تنتمون بالفعل للكتب.

كانت أمى مضطربة. لم تستطع بعد أن تتمالك نفسها، ولم تكن ترتاب. للكتب؟ للكتب؟ - صرخت.

- للتاريخ، قلت أنا. أما كنت تعرفين؟ ما أن خرج من العالم دخل التاريخ. وأنت معه.

- أنا معه؟ - صرخت أمى وهى مضطربة.

- أنت معه. أنت معه - صرخت أنا.

- هل تعتقدين أنك ما زلت منتمية للعالم؟ - صرخت أنا ـ لهذه الأرض؟ لصقلية هذه؟

وصرخت بصوت أعلى: لا يا عزيزتى. سوف ترين أنهم سوف يستدعونك وسوف يمنحونك نيشانا.

- نيشان؟ - صرخت أمى.

- نعم، على صدرك - صرخت أنا.

وهنا أخفضت أخيرا صوتى، وواصلت بهدوء: لما فعله هو لهذا العالم. لهذه المدينة. لصقلية.

واختتمت: نيشان تكريما له.

وبدأت أمى هنا بالتحديد تنهار. كيف يمكن هذا؟ - قالت ـ لم يكن إلا صبيا مسكينا.

وأنا بدأت أخاف. بدأت أيضا أتذكر.

ـ ٤٧ ـ

ماذا كان يعنى تعبير "صبى مسكين"؟

نظرت إلى المطبخ من حولى ورأيت الموقد والإناء الفخارى فوقه، والمعجنة لعمل الخبز، ودورق الماء، وحوض الغسيل، والمقاعد، والمنضدة، وعلى الحائط الساعة القديمة التى يقال إنها كانت لجدى، وكنت أحس بالخوف وأنا أنظر. نظرت وأنا خائف إلى أمى أيضا. كانت ملفوفة فى غطائها، بين أشيائها، مثلها مثل أى شىء من أشيائها، مفعمة بالزمن، بماضى الجنس البشرى، طفولة وما يليها، رجال وأبناء، تاريخ وأى تاريخ. هناك بالداخل كان عليها أن تستمر فى حياتها، وكان من شأن تحمير الرنجة فوق الأتون أن يستمر، أن تستمر فى أن تلبس حذاء والدى فى قدميها. كنت أنظر أليها وأنا أخاف.

وكنت أتساءل من عساه يكون الصبى الأكثر بؤسا.

من كان الصبى المسكين أكثر؟

بدأت أخاف، وأكررها. وفى تلك الأثناء بدأت أيضا أتذكر. وإذ كنت أتذكر أخرجت سيجارة وأشعلتها. كانت سيجارتى الأولى فى

ذلك اليوم، وسيجارتى الوحيدة، والتى تبقت لى من ليلة السكر تلك. أشعلتها ورميت عود الثقاب، وإذ كنت أتذكر ما كان لتلك السيجارة وجدت الدموع تسيل شيئا فشيئا على يدى.

خرجت من المنزل وأنا أدخن: "كرا، كرا، كرا"، كانت الغربان تنعق فى سماء الرماد. نزلت إلى الشارع، وذهبت إلى شوارع صقلية تلك التى لم تعد رحلة، بل واجبا ملزما، وكنت أدخن، وكنت أبكى.

"آه، آه! إنه يبكى! لماذا يبكى!" كانت الغربان تصيح فيما بينها وهى تأتى ورائى.

وأنا واصلت سيرى دون أن أجيب، وها قد جاءت ورائى أيضا عجوز سوداء. لماذا تبكى؟ - سألت.

لم أحر جوابا، وواصلت المسير وأنا أدخن، وأنا أبكى، وكان هناك حمال يقف فى الميدان ويده فى جيبه وسألنى هو أيضا: لماذا تبكى؟

هو أيضا جاء ورائى، ومررت وأنا أبكى أمام كنيسة. رآنا القس، أنا ومن كان يأتى خلفى، وسأل العجوز والحمال والغربان: لماذا يبكى هذا الرجل؟

انضم إلينا، ورآنا بعض الصبية وتعجبوا: عجيب! إنه يبكى ويدخن!

وقالوا أيضا: إنه يبكى بسبب الدخان! وجاءوا ورائى مع آخرين وهم يحملون معهم لعبهم.

وهكذا جاء ورائى أيضا حلاق، وجاء ورائى حطاب ومتسول، وفتاة ملفعة الرأس، ومتسول ثان. كانوا يروننى ويسألوننى: - لماذا تبكى؟ - أو يسألون من كان يتبعوننى: - لماذا يبكى؟ - وأصبح

الجميع تابعين لى: حوذى، كلب، رجال من صقلية، نساء من صقلية، بل وحتى رجل صينى. لماذا تبكى؟ - كانوا يسألوننى.

وأنا لم يكن عندى أى إجابة أعطيها لهم. لم أكن أبكى لسبب معين. لم أكن أبكى فى الحقيقة؛ كنت أتذكر؛ وكان هذا التذكر يأخذ شكل البكاء فى عيون الآخرين.

ماذا كنت أستطيع أن أفعل؟ كنت أواصل طريقى. ووصلت أسفل تمثال المرأة العارية البرونزى، والذى كان مهدى للذين سقطوا فى ميدان الحرب، ووجدت حولى أصدقاء اليومين السابقين جميعهم، الصقليين الذين قابلتهم والذين تحدثت معهم خلال رحلتى.

- هناك واجبات أخرى - قال لى اللومباردى الكبير ـ لا تبك!

- لا تبك! قال لى الأصدقاء فى المرض.

- لا تبك، - قالت لى الصديقات.

والصديق القصير صاحب البرتقال قال لى هو أيضا: - لا تبك.

وكان هناك الكتانى وقال: السيد معه حق! لا تبك!

- إيه! ـ قال العجوز القصير صاحب الصوت الذى يشبه عودا جافا.

- ولكننى لا أبكى من أجلكم - قلت - لا أبكى.

جلست على الدرجة أسفل تمثال السيدة البرونزية، وأحاط بى الأصدقاء، وكانوا يتصورون أننى أبكى لهم. لا أبكى، واصلت الكلام أنا. وكنت أبكى. ـ لا أبكى. أنا أتخلص من حالة سكر.

- ماذا يعنى هذا؟ - قال ذو الشوارب ودون الشوارب.

- لابد أن هناك معنى وراء هذا - قال دون الشوارب لذى الشوارب.

- لا أبكى - واصلت أنا ـ ليس هناك شىء وراء هذا.

وصرخ الرجل إزكييلى: العالم مهان إهانة شديد!

- ولكننى لا أبكى فى هذا العالم، أجبت أنا.

وقالت الأرملة: يبكى من أجل أمه.

وقالت المرأة الأخرى: يبكى من أجل أخيه الميت.

وأجبت أنا: لا، لا، أنا لا أبكى فى نفسى، أنا لا أبكى فى هذا العالم.

ومن جديد قلت إننى لا أبكى البتة، ولا أبكى من أجل أحد، من أجل أى شىء فى صقلية، من أجل أى شىء فى العالم، واستأذنت منهم، ودعوتهم جميعا للانصراف، وقلت لهم من جديد إننى أتخلص من حالة السكر.

وسألنى السنان: متى حصلت لك هذه الحالة؟

- فى المقابر - أجبته أنا ـ ولكن لا يجب الحديث عن ذلك.

- آه! ـ قال السنان.

وانتهيت أنا من التدخين، وانتهيت من التذكر. وتوقفت عن البكاء.

- ٤٨ -

عندئذ رفعت عينى نحو المرأة البرونزية العارية فى الصرح التذكارى.

كانت امرأة شابة بضعف أبعادها الطبيعية وجلدها البرونزى ناعم، حلوة القوام، كما كان من شأن أمى أن تصفها؛ بساقين، ونهدين، بظهر، وبطن، وذراعين... كانت مجهزة بكل ما يمكن أن يجعل المرأة امرأة، كأنها خرجت لتوها من ضلع رجل، حقيقة. كان بها أيضا ما ينوه فى غموض عن جنسها، وكان شعرها الطويل يزين جيدها بعذوبة مثيرة، ووجهها يبتسم بخبث مغر، بكل العسل الذى تحتويه، هى فى وقفتها العارية هناك فى وسط المكان وبحجم أكبر من اللازم مرتين ومن البرونز.

وقفت، وأدرت حولها، أفحصها فحصا جيدا. ذهبت إلى الخلف منها وإلى الجانب، ثم إلى الخلف من جديد. كان الأصدقاء يراقبوننى، والعجائز يغمزون لى بعيونهم، والنساء والفتيات يتفحصن بعضهن البعض خفيضات الرأس، واللومباردى الكبير يجلى حنجرته بقوة.

- إنها امرأة بمعنى الكلمة - قلت أنا.

اقترب منى السنان، واستقر إلى جوارى على قاعدة التمثال، ورفع عينيه هو الآخر. مؤكد - قال لى فى إعجاب. ـ إنها امرأة.

درنا نحن الاثنين أمامها، وظللنا رافعين أعيننا نحوها. لديها لبن هناك، - علق السنان وضحك.

ضحكت الفتيات من تحت أقدام الصرح. وابتسم اللومباردى الكبير. إنه امرأة، قلت أنا من جديد. ابتعدت خطوة أو خطوتين فوق قاعدة الصرح وتبعنى السنان، ونظرنا نحن الاثنين إلى المرأة على إجمالها.

- لا بأس، أليس كذلك؟ - سأل السنان.

وأنا دعوته لملاحظة ابتسامتها. وأعطانى السنان ضربة خفيفة بمرفقه. ها ها! ـ قال.

كانت المرأة شامخة الوقفة وذراعها مرفوعة نحو السماء، والذراع الأخرى مطوية على صدرها كأنها تلمس إبط الذراع الأولى. كانت تبتسم.تعرف كل شىء، قال السنان.

ضحكت فتاة، أسفل قاعدة الصرح، وأردف السنان: هل تعرف أنها نصابة بطول هذا النصب كله.

- بل تعرف أكثر من ذلك - قلت أنا ـ تعرف أنها حصينة.

- حقا؟ - صاح جمع المتحدثين معى.

- هذا أمر مفهوم - قلت أنا. ـ فهى تعرف أنها من البرونز.

- آه، هذا هو السبب! تعجب محدثى.

وواصلت أنا: هذا واضح، أليس كذلك؟

- هذا واضح - صدق محدثى على كلامى.

نزلت أنا درجة، وقبعت هناك جالسا. ابتعد كل واحد بضع خطوات، اتخذ كل واحد مكانا جلس فيه.

- هذه المرأة لهم - قلت أنا.

وافق الجميع وأردفت أنا:

- إنهم ليسوا موتى عاديين، لا ينتمون إلى هذا العالم، وإنما ينتمون إلى عالم آخر، ولديهم هذه المرأة لهم.

-ههم! ـ قال الجندى.

- أما كان لطيفا من جانبنا أن نقدم لهم امرأة هدية؟ - واصلت: إننا نحتفى بهم فى هذه المرأة.

- ههم! قال الجندى. ـ ههم! ههم!

- وفى هذه المرأة، - واصلت أنا. فى هذه المرأة...

توقفت عن الحديث، وتحدث الجندى بداخلى بوضوح:

- ههم!

- ههم؟ - تساءل محدثىّ وهم يجلسون من حولى.

- لا شىء - قلت أنا. ـ لم أقل سوى ههم..

ولكن مرة أخرى تحدث الجندى بداخلى بشكل واضح وقال من جديد: ههم!

- ما هذه القصة؟ - تساءل ذو الشوارب ودون الشوارب فيما بينهما.

- إنها كلمة مسجلة - قلت أنا.

تبادل الصقليون النظر فيما بينهم.

- آه! ـ قال الرجل بوريفيريو.

- فعلا! ـ قال الرجل إزكييلى.

- مؤكد - قال السنان.

ووافقهم اللومباردى الكبير برأسه. ووافق كل واحد. وقال واحد:

- أنا أيضا أعرفها.

- ماذا؟ - سأل ذو الشوارب.

- ماذا؟ - سأل دون الشوارب.

فى الأعلى كانت المرأة البرونزية تبتسم، فوق كل هذا.

- وهل هو كثير أن نعانى؟ - سأل الصقليون.

خاتمة

ـ ٤٩ ـ

كانت هذه هى محادثتى فى صقلية، والتى استمرت ثلاثة أيام بلياليها، وانتهت مثلما بدأت. ولكننى لا بد أن أسجل أن شيئا ما قد حدث بعد النهاية.

كنت قد عدت عند أمى لكى أودعها، فوجدتها فى المطبخ تغسل قدمى رجل.

كان الرجل يجلس وظهره للباب، وكان عجوزا جدا: وهى راكعة على الأرض، وكانت تغسل قدميه العجوزين فى طست. أنا مسافر يا أمى - قلت لها ـ جاءت الحافلة.

رفعت أمى رأسها عن الرجل. إذًا لن تأكل معنا؟ - أجابت.

لم يتلفت الرجل، لا لكلماتى، ولا لكلماتها. كان شعره أبيض، وكان مسنا للغاية، وظل رأسه منحنيا. كما لو كان مستغرقا فى التفكير، أو نائما. هل هو نائم؟ - سألت أمى همسا.

- لا، إنه يبكى، ذلك الأحمق - أجابت هى.

وأردفت: كان دائما هكذا، يبكى عندما كنت ألد، ويبكى الآن أيضا.

تعجبت أنا هامسا: ولكن كيف؟ هل هو أبى؟

لم يكن يعيرنا انتباها.

اقتربت منه حتى أرى وجهه، ورأيت أنه يخفيه بين يديه. على أية حال كان يبدو لى مسنا للغاية؛ ولبرهة ظننت أنه جدى. وظننت أيضا أنه عابر السبيل الذى عرفته أمى. وهل عاد الآن؟ - سألت همسا.

هزت أمى رأسها فى استنكار.

- يبكى - قالت - لا يعرف أننى محظوظة.

ولكن هنا تركت قدمى الرجل العجوزين وحدهما فى الطست، ونهضت، وانتحت بى جانبا. - بالمناسبة، لقد خدعتنى بكورنيليا تلك - قالت لى - لم يمت أولادها فى الميدان.

- لم يكن ذلك فى الميدان؟ - تعجبت أنا، همسا كالعادة.

- كلا - واصلت أمى - لقد رأيت ذلك فى كتب المدرسة الخاصة بكم عندما خرجت.

- حسنا - قلت أنا. وقبلت جبهتها - سلام!

- ألا تريد أن تحييه هو أيضا؟ - سألت أمى.

وترددت وأنا أنظر للرجل المسن ثم قلت: سوف أحييه فى مرة أخرى. دعيه وشأنه. وخرجت من البيت، على أطراف أصابعى.

ملاحظة

لتجنب اللبس والالتباس أنبه بأنه كما أن بطل هذه المحادثة لا يسرد سيرة ذاتية، فإن صقلية التى يأتى فى إطارها وترافقه ليست إلا صقلية بحكم الظروف؛ ذلك أن وقع اسم صقلية بدا أقرب إلى سمعى أفضل من إيران أو فنزويلا. بالإضافة إلى ذلك فإن جميع المخطوطات على ما أظن يتم العثور عليها داخل زجاجات.

المؤلف فى سطور:

إليو فيتورينى

روائى إيطالى ولد عام ١٩٠٨، وتوفى عام ١٩٦٦.

هو الأكبر من بين أربعة أشقاء، لأب عامل بالسكك الحديدية، ولد ونشأ وتربى بين قطارات السكك الحديدية واستراحات العاملين في مختلف المدن الإيطالية، وكثيرا ما أغراه القطار بالسفر والهروب من المنزل. عاش أولا في جوريتسيا ثم في فلورنسا وأخيرا في ميلانو. عارض الفاشية وتعلم الإنجليزية وبدأ يترجم الأعمال الروائية الأمريكية. انخرط في السياسة في صفوف الحزب الشيوعي ولكنه سرعان ما اختلف مع الشيوعيين، فأسس مجلات أدبية مثل البوليتكنيكو عام ١٩٤٥وميانبو مع كالفينو عام١٩٥٩. اكتشف الكثير من الكتاب المشهورين من بينهم كالفينو وكاسولا وفينوليو. استطاع بتفرد أن يحكي أكثر من ثلاثين عاما من الحياة الإيطالية، رائدا للواقعية الجديدة.

المترجم فى سطور:

حسين محمود

أستاذ مساعد اللغة الإيطالية ورئيس قسمها بكلية الآداب، جامعة حلوان، ناقد أدبى لمجلات عربية ومصرية (مقالات نقدية حول الأدبين العربى والعالمى)، صحفى حر، وعضو هيئة تحرير ببليوجرافيا الأدب الإيطالى العالمية ـ دار نشر ساليرنو ـ روما، له أعمال عديدة بالعربية والإيطالية منها: «صورة محمد فى الإعلام الإيطالي»، «موقف النقد الأدبى العربى من إبداع الكاتبات اليمنيات»، «التأثير الثقافي للأدب الإيطالى على الأدب العربى»، «الكتاب المهاجرون العرب فى إيطاليا». ومن ترجماته إلى اللغة العربية: «السيدة لا تصلح إلا للرمى ـ داريو فو» و«الإسلام، ذلك المجهول إلى الغرب ـ ريتا دى ميليو»، «يسوع الناصرى ـ جوزيف راتزنجر» و«محادثة فى صقلية ـ إليو فيورينى» و«الدمعة الأخيرة ـ ستفانو بينى».

المراجعة فى سطور:

سوزان بديع إسكندر

- أستاذ الأدب الإيطالى بقسم اللغة الإيطالية ـ كلية الألسن ـ جامعة عين شمس.

- قامت بنشر أبحاث فى الأدب الإيطالى، اتخذت شكل مقالات متتالية فى مجلة «الهلال» الأدبية الشهرية».

- ترجمت وراجعت العديد من الأعمال الأدبية الإيطالية، منها:

● ترجمة أشعار لفرانشيسكو بتراركا وجوفانى باسكولى وشيرازى بافيزى وأنطونيو بورتا.

● قصص لألبرتو مورافيا واينيو فلا يانو وميكيلى بريسكو.

● نصوص مسرحية للويجى بيرانديللو.

التصحيح اللغوى: حامد أحمد
الإشراف الفنى: حسن كامل

"أطراف حديث في صقلية" هو عنوان رواية الأديب الإيطالي إليو فيتوريني، وتعد من عيون الأدب الإيطالي في القرن العشرين، وتترجم لأول مرة إلى اللغة العربية. وتقنية السرد التي يستخدمها فيتوريني شديدة الذاتية، لأنها تسمح بخلق جو غامض حول المشهد المروي، ولا تصرح به مباشرة، سواء مع مفتاح واقعية الحلم أو رمزية المقاومة. كما أن الخيال "الذكي" هو الأداة الفنية التي ينجح بها فيتوريني في وضع النص أمام القارئ كقصيدة شعر متعددة المستويات في القراءة والتفسير، ولعل هذا هو الدرس الذي استوعبه فيتوريني من شاعرية السرد في ألف ليلة وليلة، والتي نجد فيها تقنيات الحلم ورمزية المقاومة.

تصميم الغلاف: نهى قاسم